بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

كلية التربية – قسم اللغات

وصف الطبيعـــــــــة عند شعـــــراء الأنْدلُس

Description of nature when Poets of Andalusia

بحث تكميلي لنيل درجة البكلاريوس في اللغة العربية

إعداد الطالبات:

أميرة آدم إسماعيل صـابون

صفاء حمـد حامـد عجبنـا

هاجر العوض حسن العوض

تهجـد عوض وداعة موسى

إشـــراف:

د. أيمـــن سلطـان

1437هـ - 2016م

أ ب ب ؤ

الآيـــــــــــة

ٹ پ ڈ

چ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ﯦ ﯧ ﯨ

چ

صدق الله العظيم

(سورة الشعراء الآيات: 224-226)

الإهـــــــداء

إلى من أحق الناس بحسن صحابتنا

إلى أمهاتنا ... وآبائنا ... وإخوتنا ... وأساتذتنا ،،،

إلى كل مهتم بالعمل، متفائل بالحياة مؤمن بالقضاء والقدر

إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع،،،

إلى أهلي وعشيرتي الكرام

إلى أهل الأندلس فهم أحق بالإهداء

من قبل ومن بعد،،،

الشكر والعرفان

ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، يا من وسعت كل شيء رحمة وعلماً، لك الحمد في الحمد حتى ترضي، ولك الحمد بعد الرضا، وسبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، نصلي ونسلم على أفضل خلقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد الشكر أولاً وأخيراً للمتفضل بخير النعم جلا وعلا وإنطلاقاً من الحديث (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)[1]، أتقدم بجزيل شكري إلى **الدكتور/ أيمن سلطان** الذي أشرف على هذا البحث الذي منحنا الكثير من علمه ووقته وهو نعم المرشد والموجه، فقد ساعدنا حتى وصل البحث إلى صورته هذه أطال الله عمره ليكون نبراساً لكل طالب علم ومعرفة.

والشكر موصول إلى زملائي الأفاضل بكلية التربية بجامعة السودان للعلوم والتنولوجيا، وإلى الخال عمر عبدالله الذي لم يبخلوا بتقديم النصح والإرشاد جزاهم الله خيراً ولا يفوتنا أن أشكر أساتذة اللغة العربية بجامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.

كما أشكر أهلنا كراماً فجزاهم الله كل خير كما أتقدم بوافر شكري اسرة مكتبة جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا ومكتبة جامعة أمدرمان الإسلامية ومكتبة النيلين والمكتبة الوطنية. كما نتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى مركز الحلول المتكاملة الذي تفضل بطباعة هذا البحث ولتعاونهم معنا حتى خرج هذا البحث إلى النور.

المستخلص

[1] أخرجه الترمذي، سنن الترمزي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشعر لمن أحسن إليك، مطبعة عيسى الباي الحلين، مصر ط1، ج1، ص 235.

تناولنا في هذا البحث وصف الطبيعة عند الشعراء الأندلسين وتظهر مشكلة البحث في السعي مجاله وتعدد القضايا المختلفة، وتتمثل أهميته في معرفة الحياة الأدبية التي نشأت في الأندلس لمعرفة أصالة وصف الطبيعة او تبعتبه له، ويهدف البحث في مجمله إلى الوصول إلى بيان أصالة الأدب الأدلسي شعراً ونقداً في الجانب الفني، واتخذنا شعر الطبيعة مجالاً للتطبيق في حدود إقليم الأندلس ولقد اعتمدنا الباحثين في المنهج الوصفي والتحليلي لجمع النصوص الآدبية التي وجدت فيها شعر الطبيعة عند هؤلاء الشعراء، وتناولنا بالشرح والتحليل الحياة السياسية والاجتماعية وفنون الآدب والنثر والطوائف التي كانت موجوده هنالك والدويلات التي نشأة في الأندلس منذ فتح الأدلس حتى الدولة الأموية ونجد الوصف كان وصفاً بناءاً حيث تناول ما في الأندلس من طبيعة ساحرة، وقسم البحث إلى ثلاثة فصول لكل فصل عدد من المباحث، أما البحث فقد الخاتمة موجز للدراسة تلتها النتائج التي توصلنا إليها والتوصيات، ثم أعقبت ذلك بقائمة المصادر والمراجع التي أفرت منها.

Abstract

This study aims to apply internal audit standards in the application of Islamic banks and external audit requirements in Islamic banks and to facilitate the review of all business processes.

The problem of the study in the difficulty of gathering business transactions of Islamic banks, and that there is a lack of application of internal audit standards in Islamic banks, and the difficulty of applying external audit in Islamic banking requirements.

The study hypotheses in the inability of the external audit review of all business operations of Islamic banks, Islamic banks and lack of commitment to the internal audit standards increases the difficulty of the

external auditor, and also the inability of the external auditor on the application of external audit standards.

Trace study the historical method to keep track of previous studies that have irrelevant, deductive approach to identify themes and setting goals and assumptions, the inductive method to test hypotheses and curriculum descriptions using the questionnaire method of analysis to figure out the impact of external audit in increasing the efficiency of Islamic banking.

The researchers reached a number of the most important results: the exploitation of the External Auditor helps in the performance review process efficiently, not to see the pro-business processes Sudanese banks Documents difficult task of the external auditor.

The most important recommendations of the study are: the Avslamah banks applying internal auditing standards, and the need for a rigorous system of internal controls.

فهـرس الموضوعات

البيـان	الصفحة
البسملة	أ
الآيــة	ب
الإهـداء	ج
الشكر والعرفان	د
المستخلص	هـ
Abstract	و
فهرس الموضوعات	ز
الإطــار المنهجي	4-1
الفصل الأول: تاريخ ونشأة الأندلس	10-5
المبحث الأول: حضاراتها والموقع والتاريخ	25-11
المبحث الثاني: الحياة العلمية والاجتماعية في الأندلس	40-26
المبحث الثالث: الحياة السياسية في الأندلس	44-41
الفصل الثاني: الحياة الأدبية في الأندلس	**48-45**
المبحث الأول: شعــراء الأندلس	66-49

المبحث الثاني: موضوعات الشعر الأندلسي	101-67
المبحث الثالث: النثــر في الأندلس	130-102
الفصل الثالث: الطبيعة في الشعر الأندلسي	**131**
المبحث الأول: الطبيعـــــة	149-132
المبحث الثاني: وصف المدن الأندلسية	175-150
الخاتمـــة	176
ولاً : النتائج	176
ثانياً: التوصيات	177
المصادر والمراجع	179-178

الإطار المنهجي

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد بن عبدالله سيد الأنبياء، وأشرف المرسلين، وخير من نطق بالضاد وأوتى جوامع الكلم وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علماً إنك أنت العليم الحكيم.

اما بعد، فنتقدم بهذا البحث في اعتزاز بالله واعتداد بعونه عن شعراء عاشقين في بلاد الأندلس عن وصفها وطبيعتها وحضاراتها في كل جوانب جمالها في الأندلس من تاريخ حتى وصف عند شعراء الأندلس الذين عاشقين علماً من أعلام الأندلس يشار إليه بالبنان، وفي بحثنا تناولنا بعضاً من الطبيعة وصفها وجمالها وموضوعاتها في شعراء الأندلس.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في أن الآدب الأندلسي بشكل عام قد اصبح محلاً للخلاف بين كثير من المهتمين بالدراسات الأندلسية، فبينما يرى بعضهم أنه امتداد طبيعي للآدب الأندلسي وأن السمات والخصائص التي امتاز بها ناتجه من أثر البيئة المحلية، وطبيعة الأندلس والحياة الآدبية والنقدية التي وجهت شعراء الأندلسيون الذين تحدث عن الطبيعة برز في وصف كل ذلك لم يكون عابثاً إنما كان الطبيعة هذه البلاد التي تحدثنا عنها وقد تطر لذلك من خلال شعر الطبيعة.

أهمية البحث:

تأتي أهمية موضوع البحث في إطار الاهتمام للطبيعة عند شعراء الأندلس والدراسات الأندلسية للكشف عن قيمة وصف الطبيعة من عرض الحياة الآدبية والعلمية السياسية والاجتماعية من خلال عصور وأطوار مر بها الأندلسيون وطوائف السياسة والمدن ودويلات موجوده في الأندلس عن ذلك.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الآتي:

1. معرفة أبرز الشعراء في العصر الأندلسي الذين برع في وصف الطبيعة.
2. التعرف على الذوّ ق الأدبي الأندلسي وعوامل قوته وتطوره وتحديد مساره.

3. بيان مظهر الطبيعة في وصف الندلس.
4. ولعل إعجابنا الشديد لطبيعة الأندلس الذي دفعنا إلى معرفة تغني الشعراء وحبهم بالأندلس.

سبب اختيار الموضوع:

لقد وقع اختيارنا لهذا الموضوع نسبة لأهميته من الناحية الآدبية خاصة وإن بلاد الأندلس بلاد ذات طبيعة خلابه، ولا شك أن هذه البيئة الساحرة شكلت الشعراء حيث ظهر منهم شعراء هي من أوصف الرائعة في الآدب العربي عامة وفي بلاد الأندلس خاصة بالإضافة إلى أننا لم أنجزه دراسة وافية للجانب الفني في الشعراء، مما يعني أن هذا الجانب في شعراء في حاجة إلى من يتصدى له بالدراسة التي تكشف عن النواحي الجمالية فيه، ومما شجعنا على اختيار هذا الموضوع وكذلك ما وجدته الشعراء في أوطنهم.

منهج البحث:

قد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي الذي افادنا كثيراً في الدراسة التاريخية للعصر الذي عاش فيه الشعراء، ثم اتبعت منهجاً تحليلياً وصفياً يف الدراسة طبيعة شعراء.

الدراسات السابقة:

مما لاحظته أثناء دراستنا لهذا الشعر قاله الذين كتبوا عنه لذلك لم أقف في دراستنا إلا على البحث بعنوان الطبيعة في شعراء الأندلس.

حدود البحث:

1. الحدود الزمانية: تبدأ من فتح الأندلس
2. الحدود المكانية: تتمثل في حدود دولة الأندلس في الفترة من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية.

هيكل البحث:

يبدأ هذا البحث بتقسيمه إلى ثلاثة فصول وخاتمة ونتائج وتوصيات، وكل فصل يحتوي على عدد من المباحث، حيث تناول الباحثون في الفصل الأول بعنوان: تاريخ نشأة الأندلس ويتألف من ثلاثة مباحث: المبحث الأول يشمل اسم الأندلس وحضاراتها وموقع وتاريخ من فتح الأندلس قبل الإسلام والأندلس بعد الإسلام، والمبحث الثاني يشمل الحياة الإجتماعية في الأندلس، والمبحث الثالث الحياة السياسية في الأندلس.

أما الفصل الثاني فقد أفردنا للحديث عن مفهوم يتألف من ثلاثة مباحث حيث يحتوي المبحث الأول على شعراء الأندلس والمبحث الثاني موضوعات الأندلس والمبحث الثالث النثر في الأندلس.

أما الفصل الثالث فهو يدور حول الحديث البحثي تناول مبحثين ويحتوي المبحث الأول على الطبيعة في الأندلس، والمبحث الثاني وصف المدن في الأندلس.

ثم ختمنا بما استخلصته من نتائج وملاحظات وتوصيات في هذه الدراسة، ثم تلا ذلك اسماء المصادر ولمراجع الواردة فيه واخيراً أسأل الله أن نكون قد أوفينا هذا البحث حقه، فإن وفقنا فبفضل من الله ورحمته، وإن كان به قصور فمن عندنا، ومن الشيطان وسبحان من له الكمال، عليه توكلا وإليه ننيب.

الفصل الاول

تاريخ ونشأة الأندلس

المبحث الأول: حضاراتها والموقع والتاريخ

المبحث الثاني: الحياة العلمية والاجتماعية في الأندلس

المبحث الثالث: الحياة السياسية في الأندلس

مقدمة:

"ربما كان أهم موضوع برع فيه الأندلسيون هو وصف الطبيعة وقد أعانهم فيه جمال المناظر إقليمهم، ولهم فيه روائع كثيرة"[2]

عرف الشعر الاندلسي بتنوع معانيه وأغراضه الشعرية، وبرز شعر الطبيعة واحداً من هذه الأغراض، وخاصة وصف الأزهار والأنوار الصغيرة، لقد اهتم الأدباء الأندلسيون في وصف الربيع بأزهاره وأنواره، منفردة أو مجتمعة، فضم الكتاب المجموعة منتخبة من الأشعار في وصف الأزهار وذكر الربيع إذا ما بحثنا عنها في العديد من المصادر لا نجد لها ذكرها. وهذا ميزة كتاب البديع الذي حرص فيه صاحبه على حفظ العديد من الأشعار في لون واحد (الطبيعة، الربيع والأزهار) خوفاً عليها من الضياع والأنسان وفيها كثير من الوصف في الشعراء لم يخرج الأندلس بتراثه ومجده

(2) معجم الحضارة الأندلسية ، يوسف عيد ، يوسف فرحان ، العرب بيروت .

وخاطري منذ عرفت شيئاً عنه وكنت ولا زلت مؤمناً بأصالة الحضارة العربية الزاهرة التي بنت صرحها، مجددة شباب العالم في ظروف عصيبة قاسية. وهذه الحضارة بطبيعة الحال لسيت شيئا الأمس الماضي، وإنما هي أيضا للحاضر والمستقبل ما دمنا ندرس هذه الحضارة العربية بمعناها العريض من أدب وفي وتاريخ وما إلى ذلك، ليتضح دورنا –الي لم يدرس بما فيه الكفاية بوصفنا عرباً – هي الحضارة الأوروبية، مستشعرين بأننا ننتسب إلى شعب لا يموت، عاملين على أخذ المبادرة مرة اخرى، رافعين علماً حياً متجدد الرواء يعرفه كل من على وجه الأرض[3].

الأندلس تسمية حديثة أطلقها المسلمون على شبه جزيرة إيبريا، التي اتخذت على مر العصور أسماء متعددة اشتق بعضها الآخر من أسماء قبائل وشعوب سكنتها أو ارتطبت باسم أحد الكواكب أو باتجاه الغرب الجغرافي فسميت في القديم إيبريا Iberia إما من نهر إبرة Eberuis أي نهر قرطبة، الذي عرفه المسلمون فيها بعد بالوادي الكبير cuadalguini وكان اليونان قد نزولا على ضغتية، وعمموا اسمه على شبه الجزيرة وإن قصره الرومان على جنوبها فقط كذلك فقط أسماها اليونان إشبانيا Ispaia ، هو اللفظ الذي تطور في اللغة الإسبانية الحديثة[4].

في معرض الحديث عن فضل الأندلس في الشعر بين سائر المظاهر الأدبية والثقافية قال ابن حزم يذكر أقدم شعراء الأندلس: "ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به الا جيرا والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين" [5]. وجعونة هذا الذي ذكره كان من العرب الطارئين على الأندلس، مداحا للصميل وزير يوسف بن عبد الرحمن الفهري في عهد الولاة، وكان فارسا شجاعا يسمونه عنترة الأندلس، ولم يبق من شعره إلا أبيات يسيرة لا تدل على هذا الذي قاله ابن حزم، محاولا

([3]) فتح الأندس ، جرجي زيداني ، دار الجيل ، بيروت -لبنان
([4]) تاريخ الأدب الاندلسي
([5]) تاريخ الأدب الأندلسي ، مرجع سابق.

في كلمته أن يجعل للشعر الأندلسي موروثا أندلسيا قديما، في موضع المباهاة، وهو من أعرف الناس بقيمة الموروث ومن أكثرهم تعلقا به[6]. وتتبقى أمامنا، بعد ذلك، حقيقة هامة في نشأة الشعر الأندلسي، وفي النماذج التي احتذاها، والمجالات التي كان يرودها، وهي انه يتكون حين كان الشعر المشرقي يشهد تجديد بشار وأبي نواس، ويقف على مفترق الطريق بين مذهبي أبي تمام والبحتري، ولما كان سكان الأندلس يلتفتون في كل شيء إلى المشرق، فقد اتخذوا من شعر المشارقة المحدثين مثالا يقلدونه، ونورا يهتدون به، أي انهم جعلوا المحدث ؟لا شعر العرب الأوائل - موروثا لهم ينسجون على منواله، ويستوحون ما فيه، وهذه الحقيقة كفيلة بتفسير جانب كبير من مظاهر الشعر الأندلسي في هذا الدور.[7]

مظهر من مظاهر الحضارة والرقي الفعلي، وأثر من آثار العناية باللغة، يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلامة الأسلوب حتى يجبر القارئ ويجده من يستمع إلى الشعر الجيد، فهو مظاهر الجمال في طبيعة الأندلس.[8]

([6]) طبقات الزبيدي : 289 وابن الفرضي 2 : 24

([7]) محمد عبد المنعم خفاجة : الأدب في الأندلس.

([8]) هدى شوكت بهنام ، داوين شعرية لشعراء أندلسيين.

الفصل الأول
تاريخ ونشأة الأندلس

تمهيد:

الأندلس إحدى مقاطعات إسبانيا، واسمها في الأصل (روندولوسيا) نسبة إلى (والوندال) و(الغندال) وانوا قد استوطنوها بعد الرومان فلما فتحها العرب سموها الأندلس، ثم أطلقوا هذا الاسم على إسبانيا كلها وكانت هذه البلاد جزء من مملكة الرومان الغربية إلى القرن الخامس للميلاد، فسطا عليها (القوط) وهم من القبائل البجرمانية الذين رحلوا من أعالي الهند إلى أوروبا طلباً للعيش والرعي، وأقاموا في بواديها[9].

حتى صار الاسم قاصراً على آخر تمثيل إسلامي في مملكة غرناطة بجنوب شرقي شبه الجزيرة، فلما انتهى التواجد الإسلامي في أواخر القرن التاسع الهجري (15م) عاد اسم الأندلس مرة أخرى حتى الوقت الحاضر، ليدل فقط على منطقة السهل الجنوبي لشبه جزيرة إيبريا.

ولشبه جزيرة إيبريا تاريخ قديم فأصل السكان مزيج من الكلت والإيبريين ثم وفد إليها الفينيقيون في القرن العاشر قبل الميلاد وأسسوا على سواحلها عدة مستعمرات مثل مدن المنكب ومالقه وقادش كما أسس الإغريق بعض المراكز الإستعمارية فيها وفدوا إليها فيما بعد. [10]

منذ أواخر القرن الرابع الميلاد وبادية موجات متتابعة، تمن القوط الغربيون من أن يؤسسوا شبه الجزيرة مملكتهم الشهيرة التي ظلت قائمة حتى قضى المسلمون عليهم في عام 92هـ -711م ولا يضمها من تاريخ هؤلاء القوط سوى السنوات الأخيرة التي سبقت الفتح الإسلامي مباشرة، وهي السنوات التي وضعت خلالها مظاهر ضعف القوط

([9]) قصة الأدب في الأندلس ، محمد عبد المنعم خفاجة ، منشورات مكتبة المعارف في بيروت ،
([10]) دائرة معارف : في تاريخ العرب في الأندلس.

السياسي وانحلالهم الإجتماعي وتدهورهم الإقتصادي. على أنه بعد ما فتح المسلمون شبه الجزيرة، أواخر القرن الأول الهجري (أوائل) أصبحت تعرف عندهم بالأندلس.

الأول من دخول العرب الأندلس على ما تقتضيه الأحوال من الخطب والرسائل الإدارية والسياسية، لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة، وداح الخبر، لأن ميدان الحياة الإجتماعية والساسية في البلاد ومظاهر الحضارة وصف الطبيعة والحياة العلمية في الأندلس الرائعة كان الشعراء عشقين علماً من أعلام في بلدهم الأندلس.[11]

([11]) تاريخ الأندلس.

المبحث الأول
حضارات وموقع وتاريخ الأندلس

لأن الأدب لا يتبع الحضارة لنفسها، ولكن لفلسفتها وحواشيها الرقيقة، فليس الشأن في بناء يقام وبلد يعمر ونهر يبثق وأرض تفلح، ولكن الشأن في فلسفة ذلك جميعه، من جمال الشكل وإحكام الهندسة وجلاء الطبيعة وحسن التنسيق؛ وأنت مع استفحال الحضارة الإسلامية واستبحار عمرانها وسموق مبانيها ودقة فنونها، خصوصًا في الأندلس، لا تكاد تجد لأفراد الشعراء المعدودين في وصف المباني إلا ما كان للبحتري في وصف قصور كالجعفري وغيره، وللشريف الرضي في وصف ما كان في الحيرة من منازل النعمان، والصابي في وصف قصر روح بالبصرة، وشعراء الداريات، وهم الذين نظموا في وصف دار الصاحب ابن عباد كأبي سعيد الرستمي والخوارزمي وغيرهما، وقد ذكرهم صاحب "اليتيمة" وأورد قصائدهم، وابن حمديس في مباني المعتمد على الله وما شاده المنصور بن أعلى الناس وهو أشهر الشعراء في ذلك، وأبي الصلت أمية الأندلسي في مباني علي بن تميم بن المعز العبيدي بمصر، وأبي محمد المصري في وصف قصر المأمون بن ذي النون بطليطلة، وقطع متفرقة لغير هؤلاء، وهم مع ذلك يذكرون مادة البناء ولا يصورون هندسته؛ لأن الشعر ليس مادة جامدة يأتلف مع الجوامد، وإنما هو يتبع زخرف الحضارة وفلسفتها.[12]

اسم الأندلس:

بينما نجد تعبير (أسبانيا) هو اللفظ الوحيد المستعمل بين الإخباريين الأسبان ويقصدون به شبه جزيرة إيبريا بأجمعها: فيدخل في مفهومه الأراضي التي تحت السلطان العربي وتلك التبي بين الأسبان أو التي استردها هؤلاء من العرب، نجد في نفس الوقت، المؤرخين العرب، إلا في أحيان نادرة، يطلقون عليها أسماء الدويلات الأسبانية التي تقام فيها مثل: البرتغال، وقتشتال، ونافرا، وأرغون.[13]

([12]) فصول في الأدب الأندلسي ، د. حكيمة علي الؤوسى

([13]) حسين مؤنس ، فجر الإندلس ، ص 43 ، و أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي ، ص19، 20

أما الأصل الذي نشأت عنه لفظة (الأندلس)، فيبدو، على أرجح الآراء أنه من فاندليسيا (Vandalicia) أي إقليم الوندال، وهو الاسم الي أطلقه الوندال على منطقة بتيكا (Betica) في جنوب أسبانيا والذي عرف بين العرب معرباً بلفظ (بيطي) و(وباطقه) ويظهر أن العرب لم يأخذوا لفظ (الأندلس) عن فاندليسيا وإنما عن لف ظ الوندالس (vandalos) ولفظ اسم القبائل فقالوا (بلاد الواندالس ثم اختصر ويخفف فصار (بلاد الأندلس) بتحويل الواو إلى همزة وحذف الألف تخفيفاً. ولا يزال هذا اللفظ (الأندلس) يستعمل في الأسبانية ويراد به الأقاليم الأسبانية الجنوبية وغرناطة، ومالقة، وبجيان، وقرطبة، وإشبيلية، وقاد، وولبه. [14]

موقع الأندلس:

الأندلس إقليم في جنوب إسبانيا، وقد أطلق اسمه على البلاد كلهامجازً ا، ولهذه البلاد "إسبانيا" في تاريخ الحضارة أربعة أعصر: الأول عصر الفينيقيين الذين اكتشفوها، والثاني عصر الرومانيين، والثالث عصر القوطيين ... والرابع العصر الإسلامي. وكانت إسبانيا قبل أن يكتشفها الفينيقيون ما بين القرن الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، معمورة بقبائل يسمونهم "الأيبيريين" وقد وقع الخلاف في أصلهم، قالوا: ومن هذا الاسم اشتق اسم "هباريا" الذي كان الاسم الأول لتلك البلاد، ثم صار إسبانيا بعد ذلك.[15]

شبه جزيرة إيبيريا الواقعة إلى الجنوب الغربي من أوروبا، وهي كتلة هائلة لا يفصلها عن بلاد غالة (الفرنجة) سوى جبال البرت أو البرتات، وهي جبال عظيمة تمتد من أرض برشلونة في الشرق في مدينة بيونه في الغرب، ولذلك تربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي وتشكل الحد الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة ن الذي هو أقصر حدودها طولاً، وفيما عدا تلك الناحية فإن المياه تحيط بشبه الجزيرة من كل جانب مما حدا

([14]) المرجع السابق

([15]) محمد صالح الشنطي ، في الأدب العربي الأندلسي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع.

بالجغرافيين المسلمين إلى إعتبارها جزيرة. إذ يمتد البحر المتوسط على طول ساحليها الشرقي والجنوبي بادئاً من الأقدام الشرقية لجبال البرتات حيث يعرف في هذه الناحية الشمالية ببحر كنتبرية Elmar Cantabrico أو خليج بسكاي وهو ما يسميه بعض الجغرافيين الملسمين ببحر الإنقليشيز. وبذلك تنعزل شبه جزيرة إيبريا عن بحيراتها بسبب إحاطة المياه وجبال البرتات بها، حتى لقد شبهها أحد المؤرخين الأوربيين الحديثين بسفينة ضخمة تطفوا على سطح الماء.

ومع أنه شبه الجزيرة تتكون معظمها هضبة كبيرة تعرف بالمزيتا La Meseta يتراوح ارتفاعها بين 600-900 متراً فوق مستوى سطح البحر مما يجعلها تبدو كأنه وحدة جغرافية واحدة، إلا أن كثيرة الجبال المستعرضة من الشرق إلى الرغب أو العكس فضلاً عن تعدد الأودية العميقة فيما بين هذه الجبال قد فتن هذه الوحدة وأعاق الاتصال بين أجزائها المختلفة، فنشأت لذلك وحدات محلية تنفصل كل منها عن الأخرى بحواجز طبيعية مثلما ينعزل الجنوب عن الوسط بجبال مورنيا La Sieura Morena وينشرط الوسط ذاته بجبال الشارات التي تأخذ من ظهر مدينة سالم حتى قرب مدينة قلمرية في أقصى الغرب قرب ساحل المحيط الأطلسي، وهي الجبال التي يقع خلفها بحر الشمال نهير دويرة Durera الذي ينبغ من نواحي مدينة نومانتيا Nomantia في شمال شرقي شبه الجزيرة ويجري غربا ليصب في المحيط الأطلس فيما بين مدينتي قلمرية Coimbra والبرتغال Portucale أم الجزء الشمالي من شبه الجزيرة فتخترقه جبال كتبرية التي تعتو امتداداً غربياً لجبال البرتات حتى ساحل المحيط.[16]

وقد استفاد المسلمون من هذه الطبيعة الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار خطوطاً دفاعية تحمي الأندلس من مسيحي الشمال، وأقاموا على طول هذه الوديان قواع عكسرية هامة لهذه الخطوط فكانت مدينة سرقسطة Saragaza مركزاً للخط الدفاعي الأول في الشمال الشرقي وهو نصر إبرة،

([16]) المرجع السابق

ولهذا سميت سرقسطة بالثغر الأعلى، تليها جنوباً بغرب مدينة طليطلة Toledo التي كانت مركزاً للخط الدفاعي الثاني وهو نهر تاجه Tajo، ولهذا سميت منطقة طليطلة بالثغر الأوسط، أما مدينة ماردة Merida فكانت مركز الخط الدفاعي الثالث في أقصى الجنوب الغربي وهو نهر وادي أنه Cuadiara ولهذا سميت منطقة ماردة بالثغر الأدنى[17].

سكانهـا:

ولشبه جزيرة إيبريا تاريخ قديم فأصل السكان مزيج من الكلت والإيبريين ثم وفد إليها الفينيقيون في القرن العاشر قبل الميلاد، وأسسوا على سواحلها عدة مستعمرات مثل مدن المنكب ومالقه وقادش، كما أسس الإغريق بعض المراكز الاستعمارية حينما وفدوا إليها فيم بعد ثم خضعت للقرطاجنيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد وازدهرت مدينة قطرجانة الجديدة في عهدهم واتخذوها عاصمة لهم ثم جاءها الرومان فجعلوها إقليماً رومانياً نشروا فيه حضارتهم وقوانينهم وفنونهم الرومانية، فضلاً عن الديانة المسيحية فلما ضعفت الأمبراطورية الرومانية منذ أواخر القرن الرابع الميلاد ي وبدايات القرن الخامس وصارت نهباً للبائل الجرمانية التي اجتاحتها في موجات متتابعة، تمكن القوط الغربيون من أن يؤسسوا في شبه الجزيرة مملكتهم الشهيرة التي ظلت قائمة حتى قضى المسلمون عليها في عام 92هـ / 711م، على ما سنرى فيما بعد، ولايهمنا من تاريخ هؤلاء القوط سوى السنوات الأخيرة التي سبقت الفتح الإسلامي مباشرة، وهي السنوات التي وضحت خلالها مظاهر ضعف القوط السياسي انحلالهم الإجتماعي وتدهورهم الإقتصادي.

الطبيعـة:

الطبيعة هي أصل الجمال ومبعثه، منها يستمد الإنسان طاقته ووجوده وإليها يهرع إن أصابه مكروه أو أحب، ففي جمالها عزاء وسلوى، ومنها يستمد الشاعر صوره

([17]) تاريخ الأندلس ن أحمد بدر ، عام 1983م

ويثري بظلالها شعره، وهي مصدر إلهام للرسام ولكل فنان، لن مهما أبدع الشاعر أو الكاتب أو الرسام في الشعر أو الوصف أو الرسم، فإنما هم يقلدون الطبيعة ويكون خط أحدهم من النبوغ من خلال إتقان تقليد جمالها ومحاكاته.

والإنسان حين محاكاته لهذه الطبيعة يمتحن نفسه، ويظهر براعته، وهو يلتذ بكونه صنع شيئاً له ظاهر طبيعي لا يكون مبداً وإنما مقلداً ولهذا ما قال به بعض فلاسفة اليونان بدءاً من إفلاطون ففي رأيه أن (كل ما يحتاجه الفنان هو أن يأخ مرآة ويديرها في جميع الإتجاهات) وفي قتل لكل إبداع يأتي به الفنان أو الشاعر حيث إتخاذ الطبيعة منبعاً لإبداعه، والفنان لا يقلد ما تنتجه الطبيعة بل هو يقلد طريقتها في الإنتاج، وعليه أن يتجاوز هذا المدرك في المراحل المتقدمة ليعبر عن شيء مثالي يظهر فيه إبداعه وعدم التقليد الساذج للطبيعة[18].

وعلى الفنان أن ينطلق من مبدأ أساسي هو (الجمال قائم في أشياء متقدرة على العمل الفني الجمال في وحدة كاملة من دون أن يخرق أثناء ذلك قانون الصدر تجاه الطبيعة).

ولكن هناك من يرفض جمال الطبيعة ومنهم (هيغل) الذي أنكر توفره زاعماً أن الجمال هو في الفكرة المطلقة أو الروح، أي الجمال في الطبيعة، العقلي وهو الجمال الموجود في الفن لأنه نتاج العقل مع الإحساس فالجمال الطبيعي على وفق رأيه ليس جميلا لذاته وفي ذاته، وهو ليس نتاج ذاته، لأنه ليس جميلاً إلا لنسبة إلى الى الآخين، أي إلينا نحن، فالوعي المدرك للجمال هو الذي يتنبى ويعطي صفة الجمال لعناصر الطبيعة[19].

ولكن هيغل في رفضه لها ينكر جمال الطبيعة من خلال شيء بديهي ألا وهو مبدأ القبول والرفض، أي إعطاء صفة الجمال أو القبح للاشياء ومن ثم رفض الإنسان لما هو قبيح وقبوله لما هو جميل، وحتى هذا القبيح حين تناوله يد الفنان تحوله إلى صورة رائعة، فمثلاً الصحراء الجراء أو منظر الأطلال الخربة وغيرها، حيث تتناولها يد الفنان

([18]) آزاد محمد كريم الباجلاني ، القيم الجمالية في شعر الأندلس ، عصري الخلافة والطوائف.
([19]) المرجع السابق.

الماهر تجعل منها صورة جميلة نابضة بالحياة من خلال فنه الرائع، فأجمل قصائد الجاهلية هي التي بدأت بالوقوف على الأطلال والحديث عن الصحراء وما فيها[20].

الشاعر لا ينقل إلا ما هو موجود في الطبيعة كما هي وإنما يستعين بها ليعبر عن أشياء جديدة، فهو يكمل ما لم تستطع الطبيعة إكماله، وهو لا يقف عند حرفية النقل بل عليه أن يجعل من الطبيعة أداة من أدواته، ليعبر من خلالها عما يجب التعبير عنه مُظهراً أحساسيه وتجاربه، كي يبث فيها من روحه الإنسانية ومشاعره وعواطفه، وفي هذا أمر جديد وإضافة لما هو موجود في الطبيعة.

وهناك رأي يقول: (إن الطبيعة فوق الفن وإن الفن يتشبه بالطبيعة، وإن هذه الطبيعة محتاجة إلى الفن إحتياج الكلي إلى الجزئي ليتشكل، وإن الشكل الجمالي يدرك بالبديهة، التي هي قدرة روحانية في جبلة بشرية).

إن هذا الرأي من المحاكاة الإفلاطونية لكنها تضيف إليها بأن جعلت من الفنان عنصراً مهماً في إبراز جمال الطبيعة فهو الذي يقوم بـ" عملية إنتقاء وتنظيم لمادة مستمدة من الطبيعة"

الأندلس الأرض والسكان قبل الإسلام:

عرفت شبه الجزيرة الإيبرية بأسماء مختلفة أطلقتها عليها الأقوام التي حلت بها عبر العصور، سماها اليونان (إيبيريا) وبعدهم أطلق عليها الرومان (هيسبانيا) وأطلق عليه سكان المغرب الأقصى (واندلوس) أو (أندلس) بمعنى بلاد الواندال، لأن هؤلاء الجرمان احتلوا المغرب أخذوا اسمها من المغاربة من الناحية الجغرافية تتكنون أرض شبه الجزيرة هذه من هضبة تنحدر بالتدريج من الشرق إلى الغرب، وتخترقها سلاسل جبلية عالية تتجه من بالتدريج من الشرق إلى الغرب، تتكون السلسلة الواقعة في أقصى الشمال الهضبة من جبال عالية يسمى منها القسم الفاصل بين إسبانيا وغاليا بجبال البيرنية، التي أسمها العرب بجبال (إلبرت) أم القسم الغربي المجاور لخليج بسكاي فهو

(20) فوزي عيسى ، الشعر الأندليسي في عصر الموحدين

بجبال الكانتابريك، يلي هذه السلسلة الشمالية هضبة جافة ترتفع بعده السلاسل الجبلية المسماة سييراموريتا وقد سماها العرب بجبال قرطبة. أما السلاسل الجنوبية المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط فتسمى "سييرانيادا" ويسمها العبرب بجبل شلير أو بجبل الثلج، وتسير على الهضبة في المنخفضات بين السلاسل الجبلية وديان أنهار متعددة، يصب في الأطلسي أهمها وأثكرها مياهاً ففي أقصى الجنوب الوادي الكبير الذي تقع عليه مدينتا قرطبة وإشبيلية[21].

وإلى الشمال منه يصب وادي أنة الذي تقع عليه مدينتا ماردة بطليوس وفي وسط شبه الجزيرة يسير نهر التاجه الذي تقع عليه طليطلة، أما في الشرق فاشهر الأنهار التي تصب في المتوسط نهر آبرو وعليه تقع مدينة سرقسطة.

عاش على هذه الأرض عنصر قديم مؤلف من الكلت والإيبريين ثم خضع جنوبها لتوطن الأقوام المتوسمة في المتسوط من إغريق وفينقيين من صور ورثتهم قرطاجنة فيما بعد ثم احتدم الصراع بينها وبين روما عام 205ق.م لتبقى تحت سلطانها مدة سبعة قرون وتعرضت في نهايتها لما تعرضت له أجزاء الإمبراطورية الرومانية الغربية من هجمات القوط الغربيين أو الوزير يقوط الذين استقلوا بها عند سقوط الإمبراطورية 467م[22].

وتبع ذلك الامتزاج بين الغزاة وسكان البلاد على النطاقين الإجتماعي والمذهبي عندما اعتنق الوزير يقوط الكاثوليكية، ومع ذلك عاشت إسبانيا في نهاية القرن السابع وأوائل الثامن لميلاد أزمة إقتصادية إجتماعية أسفرت عن نقمة السكان من الفلاحين عامة، وأزمة دينية نجمت عنه سيطرة الأكليروس وإضطهاد اليهود، وأزمة سياسية تمثلت بصراع على العرش: بين وقلة وارث العرض الذي لم يعترف به النبلاء فانحسر ظل سلطانه وسلطان أتباعه إلى الشمال ، وبين زعيم النبلاء لزريق الذي اغتصب العرش وأقام في العاصمة طليطلة.

عمليات الفتح:

([21]) تاريخ المغرب والأندلس ، عبد المحسن طه رمضان.

([22]) إحسان عثمان ، تاريخ الأدب الأندلسي .

بينما كانت أسبانيا ثم بهذه الأزمات كان العرب يتمنون فتح الشمال الإفريقي كله باستثناء سبته التي استعصت عليهم لانها محاطة بالبحر من جميع الجهات، ويصلها بالبر عنق ضيق فقط، مما يجعل فتحها عن طريق البر بالغ الصعوبة.

وكان يحكم هذه المدينة يوليات، الذي يرجح كونه والياً بيزنطيا، وقد متن علاقاته بالأسرة المالكة في أسبانيا، لمزلته أثرها تقلص النفوذ البيزنطي في بقية الشمال الإفريقي بعد الفتح العربي الإسلامي. وربما لجأ إليه أفراد من هذه الأسرة بعد اغتصاب العرش منها، وعندما طرق العرب باب مدينته وجد الفرصة سانحة للتحالف معهم ضد لزريق غاصب عرش أسبانيا. وهكذا تم الإتصال بوالي شمال إفريقيا موسى بن نصير المقيم في القيروان، الذي أمر باختيار المقاومة في جنوب أراضي أسبانيا. ونزلت لهذه الغاية تحمله طريف بن مالك أو بن ملوك في جنوب شبه الجزيرة، وفي الموقع الذي أخذ اسم القائد طريف فيما بعد، فلم تلق مقاومة وعادت وقد امتلأت أيدي أفرادها بالغنائم والسبي[23]. ويظهر أن اتفاقاً ثم أثر ذلك على قيام العرب يدخلون أسبانيا وإسقاط لزريق، وأن يقدم لهم يوليان سفناً تحملهم إلى البر الأسباني، كما يقدم لهم عزب وقلة الملك المخلوع. أدلاء داخل شبه الجزيرة.

بعد مضى ما يقرب من سنة على بداية عمليات الفتح، نزل موسى بنفسه على رأس جيش آخر كان جله من أبناء القبائل العربية. وكان ميدان عمله الجزء الغربي من أسبانيا الذي بقيت معاقلته قوية وتهدد خط يسير الفتح، بدليل المقاومة التي أبدتها المدن مثل إشبيلية وماردة[24].

عصر الولاة (97-138هـ-716-756م):

بهذا العمل اكتمل فتح أسبانيا التي أصبح اسمها الأندلس، وما بقى فيها من جيوب المقاومة قضى عليه عبد العزيز بن موصى بن نصير، الذي ساعد والده وطارق في أعمال افتح وخلف والده في حمكها متخذاً إشبيلية قاعدة له، لكن الجند اغتالوه بعدما

([23]) دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها ، ص13 -29

([24]) تاريخ الأندلس ، أحمد برد

نكتب والده في المشرق، وحلت الفوضى لعدة أشهر[25] وبقيت البلد دون وال إلى أن تم الاتفاق على تعيين أيوب من حبيب، ابن أخت موسى بن نصير والٍ وقام هذا بنقل الحاضرة إلى قرطبة التي ستصبح قاعدة الولاة، والدولة الأموية التي عاشت عدة قرون بعد لك. وبه تبدأ سلسل وفترة لاولاءة أي الفترة التي عاشف فيها الأندلس تابعة رسمياً للخلافة في المركز.

منذ بداية الفترة وخلال سبعة عشر عاماً كان الشغل الشاغل للولاة هو التوسع في أراضي غالباً المجاورة التي دخلها عدد من الولاة كغزاة، وفي كل مرة كانوا يتوغلون داخلها إلى أعماق أبعد حتى وصل عبد الرحمن الغافقي إلى اللار، حيث حدثت موقعة بواتيه بينه وبين شارل مارتل، الذي تمكن من تحقيق نصر على العرب المسلمين وقتل قائدهم مع أعداد كبير من جنده، حتى سميت الموقعة ببلاط الشهداء وذلك عام 114هـ/732م.

كان من جملة العوامل التي أدت للهزيمة غياب المثل الاعلى للفتح، وهو تأمين حرية نشر الدعوة للإسلام لتحل محله أطماع دنيوية من غنائم وسلطان واختلف القائمون عليها وتصارعوا لأجلها حسب انقساماتهم العرقية والقبلية والفئوية، وشجعهم على ذلك أيضاً أنها أرض الأندلس[26].

الأندلس بعد الإسلام:

لم يكن فتح الأندلس إذن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم الذي ذكرناه في البلاد، ومن أدلة ذلك ما مورد في "الأخبار المجموعة" من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس (فكتب إليه أن فضها بالسرايا)، مما يدل على أن موسى كان قد قدر الفتح وعرف من شأن الأندلس ما شجعه على المضي فيهه، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ولو كان أراد لمجرد الغزو للغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ثم إن قول

([25]) حسين مؤنيس ، فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م).
([26]) حسين مؤنيس ، فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م).

الخليفة له: (اختبره بالسريا) يفهم أنه يوافق على الغزو إنما يأمر موسى أن يستوثق لجند المسلمين قبل أن يبدأ العمل، ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سار بأنه أملا الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدر كل شيء قبل السرو: سار طارق قدماً من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة، ولو كان يرجو مجرد القارة الغنية لعاد بعد أن وقعت في يده مدينة أو مدينتان وامتلأت يداه وأيدي أصحابه من الغنيمة[27].

وتجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذي دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عوراتها وهون عليه أمر وتجعل المراجع لذلك قصة ملخصها أن يلينان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لزريف بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها، فكتبت إلى أبيها يخبرها، فاحنقه ذلك على الزريق، ودفعه إلى التفكير في الإنتقام منه، فاتصل بالطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وفق لما أراد، ثم جعل نفسه واتباعه أدلاء للعرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها.

فقد كان المسلمون قد حاولا فتح معقله سبتة، وكان موسى بن نصير قد رجع عنه بعد أن ألفى عنده عدة وقوة ونجده ليست تشبه ما قلها فم يطقهم فرجع عنهم إلى طنجة، ويجعل يجتث ما حولهم بالمغادرة فلم يطقهم.

مما يفهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان هادئا مطمئناً في بلاده، ومن الطبيعي أن يلجأ يليان في مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه، وكان طارق كما رأينا قد صافاه. وكان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئاً كثيراً، ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى خبراته ومغانمه، ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تولد فكرة فتح الأندلس.

([27]) جرجي زيدان ، فتح الأندلس .

المبحث الثاني
الحياة العلمية والاجتماعية في الأندلس

اشتهر المجتمع الأندلسي بميزات باهرة وصفات طيبة، ميزته عن كثير من المجتمعات الإسلامية الأخرى ما بين علم ودي وثقافة في عمل ونظافة، أناقة وحب للعدل وإنكار للفوضى وإجلال للعلماء كان شعب الأندلس يقبل على العلم للعم ذاته ومن ثم كان علماؤهم متقنين لفنون علمهم لأنهم يسعون إليها مختارين، غير مدفوعين، وكان الرجل منهم ينفق كل ما عنده من مال لكي يتعلم، ومتى ما عرف بالعلم أصبح هو مقام التكريم والإنحلال وعندئذ يعلو ذكره ويُشار إليه بالبنان حتى إنه يُراعى جانبه أراد إبتياع سلعة أو شراء شيء من أغراض الحياة[28].

كان للحكام دور كبير في تنمية الثقافة وتطويرها والتشجيع عليها ومن أهم الأمور التي قاموا بها اقتناء الكتب وبخاصة المشرقين منها وإضافتها إلى المكتبات وبثها في أيدي العلماء، ومن هؤلاء الحكام المستنصر، فقد كان مشغولا بأمر التعليم، وإقتناء الكتب فكان يشجع العلماء ويرغب في طلب العلم وقد تحدث المقري عن رغبة أهل الأندلس في العلم بقول: وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعه ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لأن هذا عندهم في نهاية القبح والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرءون جميع العلوم فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء".

([28]) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، سنة 1979.

واستمر الحال هكذا في دولة الموحدين في تشجيع الدولة للعلم والمتعلمين فكان الأمير عبد المؤمن[29] -أول أمرائهم –مؤثراً لأهل العلم فقد برز في الأندلس من كبار الفلاسفة حسب ترتيبهم الزمني ثلاثة هم ابن ياجة وابن الطفيل وابن رشد[30].

بالإضافة إلى جملة من العلماء في مختلف العلوم وكانت أهم العلوم التي يقبل عليها الأندلسيون الفقه والحديث وعلم الأصول والقراءات والنحو علوم اللغة.

فقد كان للفقيه مكانته وللشاعر وجاهته، يقول المقرّ ي في النفح: "وإذا كان الشخص بالاندلس نحويا أو شاعرا فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب ذلك أنه يحسبهم أنه قد وصل إلى المرتبة العليا التي تدفع صاحبها إلى الزهو والخيلاء.

وربما كان للشعراء بالذات في ذلك العذر خاصة إذا كان مجيداً لما عرف عن الأندلسيين أنهم كانوا يحبون الشعر إلى درجة الهوس والتطرف بالرغم مما اتسم به عصر الطوائف والمرابطين من الفوضى والقلق على الصعيدين السياسي والعسكري، وإلا أنه شهد ازدهاراً وتطوراً واضحاً في الصعيدين العلمي والثقافي تنطق بها كثير من المصادر التاريخية والأدبية الأندلسية والمشرقية لكبار الأدباء والعلماء الذين بنى الخطيب فقد عرض لجانب من النشاط العلمي للعلماء آنذاك بقوله: وكتب حقهم الشهود ووقفت بأبوابهم العلماء وتوسلت إليهم الفصلاء. أ.هـ.

وهكذا وجد العلم حظه في بلاد الأندلس وحظى باهتمام الأمراء في ذلك العصر الأمر الذي أد إلى تفتح أذهان الأندلسيين، ومحبتهم للعلم وحرصهم عليه.

الحياة الإجتماعية:

بعد هذه المقدمة التاريخية الضرورية لابد من الإشارة إلى أن الحياة الإجتماعية في الأندلس كانت لها سماتها الخاصة التي يمكن تلخيصها فيما يلي[31]:

([29]) هو ابن عبد الرحمن الناصر ، تاسع أمراء بني أمية بالأندلس تولي الملك سنة 350 وتوفى سنة 366م وكان حسن السير ، صحباً للعلوم " ، ص 5.

([30]) المقي التلمساني ، نفح الطيب 1 : 250

([31]) البيان المغرب ، 3 : 206

أولاً: تكون المجتمع من العرب الذين كانوا يمثلون طبقة أرستقراطية تحس بتميز بالتعدد والتنوع، ويتسم الصراع حيناً والسلام حيناً آخر، وانعكس على ذلك الحياة الأدبية والشعرية، يمكن الإلمام بأهم تضاريس المجتمع الأندلسي على النول التالي:

تكون المجتمع من العرب الذين كانو في بادئ الأمر قلة ولكنهم تناسلوا وتكاثروا بالهجرة وانتشروا في أصقاع الأندلس وكانوا ذاتهم ينتمون إلى قبائل مختلفة فساد بينهم الصراع.

ثانياً: بعد العرب وهم البربرة ذوو الملامح والسمات القريبة من العرب فهم بداة تنتشر بينهم العصبية القبلية، وكانوا كاثرة في البداية حيث هاجروا من شمال إفريقيا إلى الأندلس وكان شعورهم بالإنتماء إلى الأندلس قوياً، ومالوا إلى الإنصهار في بوتقة الحياة العربية فيما بعد.

وأما أهل الذمة من النصارى الإسبان واليهود من أهل البلاد فقد عوملوا وفقاً للشريعة الإسلامية فكانوا يؤدون الجزية في مقابل ضمان حريتهم الدينية، تسامح المسلمون معهم واستعملوهم في الوظائف والأعمال المختلفة دون تفرقة تذكر.

وكانوا ممن عرفوا بالجدية والوقار، وبلغ شيوع هذه الظاهرة في بروز طائفة إجتماعية تحترف الشذوذ وتتجمع في حارة عرفت ب (درب ابن زيدون) قرطبة، ولا أظن أن مثل هذا عرف في المشرق العربي.[32] ولم يفق التطرف عند هذا الحد بل تعداه إلى جوانب المجتمع الأندلسي حيث انعكس ذلك في الشعر فكان ثمة هجاءون من أمثال الذي قال:

أعد الوضوء اذا نطقت به *** متذكرا من قبل ان تنسى

واحفظ ثيابك ان مررت به *** فالظل منه ينجس الشمس

الأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة صراع هذه الموجات:

الهجرة المتتابعة التي وفدت الأندلس: على النحو التالي:

([32]) تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين.

أولاً: دخل المسلمون إلى الأندلس مع الجيش الإسلامي الفاتح وكانوا من العرب والبربر، وتزوج العديد منهم من أهل البلاد من الأسبان وكان يطلق عليهم عجز الأندلس أو (المسالمة) فنشأ الصراع أولاً بين العرب والبربر، ومن بين القبائل العدنانية واليمنية لاختلاف المصالح والرغبة في اقتسام النفوذ.

ثانياً: وفد إلى الأندلس فوج جديد من المشرق مع (يلج من بشر) وكانوا حوالي عشرة الألف جلهم من العرب، ومعهم ما يقرب من ألفين من الموالي ويسمون بـ (الطالعة الأولى).

ثالثاً: جاء إلى الأندلس من يسمون بـ (الطالعة الثانية) وكانوا بصحبة (أبي الخطا والكلبي) ، ومعظهم من أهل الشام فأضافوا عنصراً جديداً، ونشأت عصبية جديدة بينهم وبين العرب والبربر المقيمين في الأندلس، ويبدو أن السبب في ذلك استئثارهم بأموال أهل الذمة، واتحد الشاميون مع الأمويين وكانوا يسمون (السادة) لمنزلتهم الخاصة في الجيش.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة السادة الأموية دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأدلس، وكان حسن السيرة مع علم وأدب، وقد تداول الحكم ستة من أبنائه وأحفاده هم:

عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) والححكم انبه، وعبد الحرمن الحكم وولده محمد ثم المنذر وعبد الله ولدا محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، وقد طالت مدد حكمهم (أو حكم أكثرهم) حتى نيفت عن الثلاثين، وكان لذلك أثره في استقامتهم فمنهم من إتخذ من سيرة السلف الصالح قدوة يغتدي بها في الحكم، إذا حاول هشام بن عبد الرحمن الداخل، أن يتمثل سيرة عمر بن عبد العزيز كان بعضهم يحاول أن يتشبه بالخلفاء العباسيين الأقوياء كالحكم بن هشام الذي سار سيرة أبي جعفر المنصور يقرب العلماء والفقهاء، وأبرز هؤلاء جميعاً عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط) الذي عرف باهتمامه العلمي والثقافي حيث شجع العلماء والأدباء والفلاسفة وكان شاعراً وعالماً. وقد بالغ في إكرامهم[33].

مظاهر الحياة الإجتماعية والثقافية في الأندلس:

(33) المرجع السابق.

كان المجتمع الإيبري قبل الفتح مؤلفاً من عناصر مختلفة تضم الأصليين من الإيبرين الذين يرجعون إلى جنس من البربر الذين استواطنوا وأطلق عليه اسم الموريين وهي لفظة شبه الجزيرة منذ أقدم العصور قادمين إليها من شمال إفريقيا إغريقية[34] واليونانيين والقرطاجنيين والرومان والوندال والقو تبعاً لموجات الغزو التي تعرضت لها الجزيرة.

وفي القرن الخامس ق.م تلقت الجزيرة مؤثرات الحضارة اليونانية ، تلقى على القسم الجنوبي منها المؤثرات القرطاجنية ولتتفاعل وتتعايش أبهى الحضارتين ومن ثم تتوج بالحضارة الرومانية وآدابها وتنتشر بين أهلها شرائح روما وقوانينها وتغمر مدنها بروائع الفنون الرومانية على الرغم من موجات الغزو الجاماني من الشمال وقبال القندال ومن ثم القوط وبقايا سيعد وأعلى شبه الجزيرة، لتتكون الجزيرة من امتزاج سكان إيبريا القدامى وبقايا القبائل الجرمانية والعنصر القوطي، وكان المجتع يتكون من القبائل الحاكمة واكن يرتكز على الملكية الإنتخابية ضمن العائلة الواحدة وطبقة إرستقراطية رومانية قديمة متحالفة مع العائلة الحاكمة للمحافظة على نفوذهم وثرواتهم، وطبقة رجال الدين التي كانت تسمتد قوتها من تدين الشعب وكان لهم دور في توجيه القوانين والتشريعات والتدخل في الأمور السياسية والعسكرية والسيطرة عل الاراضي المزراعية الخصبة، جمع ثروات عقارية مالية كبيرة، والطبقة العامة من سكان المدن والتجار الحرفيين والمزارعين الاعراب إضافة إلى طبقة العبيد وأقنان الأرض وكانوا يعملون في مزارع الأشراف ورجال الدين في ظروف قانونية واجتماعية واقتصادية سيئة جداً، أما الحياة الثقافية فقد انت فيه حصيلة طيبة من العلوم والفنون شارك فيها الفينيقيون واليونان والرومان والقرطاجنيون مما جعلها بذرة نشطة في التربة الإسبانية مصدراً الازدهار الفكري السري ما بعد الفتح الإسلامي في امتزاج بين شخصيات الأمعة كالقديس إيسيدورو الإشبيلي (560-636م) الذي ألف كتاباً بعنون أصول الكلمات

([34]) معجم الحضارة الأندلسية ، يوسف عيد ، يوسف فرحان.

وهو كتاب موسوعي حاول مؤلفه أن يضم فيه ما وصل إليه من علوم اليونان والرومان بطابع مسيحي تحكم فيه أنواع المعرفة الإنسانية التي كانت معروفة في عصره[35].

المجتمع الأندلسي بعد الفتح الإسلامي:

كان مجتمع الأندلس يتكون من سكان البلاد من الإيبريين واليونانيين والرومانيين والقرطاجنييونوالجرمان والقوط على شكل موجات متتابعة سمو بـ(الطوالع) وأولهم الذين رافقوا موسى بن نصير وكانت تضم اثنى عشر ألفاً وثمانية عشر ألف وطالعة مع بلج بين بشر القيسى في سنة 123 للهجرة وكان عدد أفرادها ما يقارب عشرة آلاف، واستوطنوا في الأراضي الخصبة وسموا بالبلديين، وجاء بعدهم الشاميون، نافسوا البلديين، فنشب النزاع بين القيسية اليمنية وقسموا البلاد إلى أقاليم، مثل إقليم همدان اليمامي إقليم بن سعد وإقليم بن أوس وأقاليم للبربر الذين رافقوا طارق بن زياد مثل أقاليم زنانة ومصمودة وصنهاجه ..استمرت هجراتهم جماعات وأفراد من شمال إفريقيا.

وكان من الأخطاء الإستراتيجية أخذ الأراضي من السكان الأصليين وتوزيعا على الفاتحين فقد احتفظ موسى بن نصير بخمس الأراضي حصة للخلافة ووزع الباقي على جنوده مما ولد ضغينة بين الطرفين وكانوا ينظرون إلى الفاتحين نرة صاحب الأرض إلى المستمرة وعدم انتشار الإسلام إلى ما وراء حدود جبال البرانس وإرتداد عنه بعد سقوط المدن الكبرى.

ولو قد لهم النجاح والاحتفاظ بهويتهم وتراثهم الإجتماعي والثقافي لترسخ جذور الإسلام في الأندلس كما حصل في المشرق الإسلامي وربما عبر الحدود إلى باقي أوروبا مغيراً وجه التاريخ[36].

العادات والتقاليد الإجتماعية في الأندلس:

كانت هناك عوامل رئيسة أثرت على طبيعة المجتمع الأندلس وهي:

- الطبقة الرومانية الإستقراطية التي كانت صاحبة الجاه والمال.

([35]) المرجع السابق

([36]) محم صالح الشنطي ، في الأدب العربي الأندلسي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع.

- طبيعة شبه الجزيرة من خصوبة الأراضي وكثرة المياه والأنهار واعتدال الهواء إلى صقلت المجتمع الأندلسي.
- تعدد الأجناس والأصول العرفية مولداً نوعاً من التمازج الإجتماعي المبني على المدنية والحضرنة.
- امتزاج الحضارات الأوروبية القديمة مع الحضارات الإسلامية المشجعة للنظافة وطلب العلم والمعرفة[37].
- تجمع الأموال وكثرة الخبرات ولاسيما في المدن المطلة على الأنهار والمحيطات.
- كثرة الجواري وما يرافقها من دور للقيا ومدارس لتعلم الرقص والغناء وآداب المجالسة وشيء من العلوم المتخلفة المعرفة للمقرئ التلمساني الذي احتوى على ثلاث رسائل هي فضائل الأندلس لابن حزم وابن سعيد والشقذى، وكتب المصنفات والرحلات الي الفضاء مشارقة زاروا الأندلس مثل ابن جوقل (306هـ) في كتابه صورة الأرض الذي ضمنه وصفاً تفصيلياً للحياة الإجتماعية والإقتصادية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس وتعجبه من اختلاف طبيعة الحياة في الأندلس عن المشرق.
- الطبقة العربية الإستقراطية التي ظهرت من البلدين الذين سيطروا على معظم الأراضي الخصبة وبنوا لأنفسهم في المدن والضواحي دوراً وقصوراً وسياقين وتجمعت في أيديهم أمواله ضخمة وجواري وعبيد[38].

وقد فصلنا في كتابنا صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة تلك العادات والتقاليد التي يمكن تلخيصها كالآتي:

أ/ النظافة:

(37) محمد صالح الشنطي ، في الأدب العربي الأندلسي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع.
(38) محمد صالح الشنطي ، في الأدب العربي الأندلسي ، دار الأندلس للنشر والتوزيع.

جاء في النفح عن فضائل أهل الأندلس أن أهلها هم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم. بل قد يكون فيهم من ليس له قوت يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه.

ب/ التأنق:

التجمل في المظهر والملبس والحرص على الروائح العطرية والكحل والحناء وقد فصل المقري زيهم في السلم والحرب.

ج/ العمار:

شوارعهم في المدينة كانت مرصفة وفي الوسط مجرى مركزي مغطى تصب فيه المياه القذرة.

د/ التدبير والعمل:

كان الأندلسيون أهل احتياط وتدبير وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال دون الوصول إل حد البخل لذلك رفضوا التسول الاستفطاء واعتكفوا على العمل وكسب الرزق وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً عل الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلاً من أن يتصدقوا عليه فلا نجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون له عذر.

هـ/ العلم والمعرفة:

العلم عندهم مقدر والعالم معظم من الخاصة والعامة قال المقري وسمة الفقيه عندهم جليلة وقد أشار المستشرق الهولندي حرصوا على تعليم أبنائهم وبناتهم منذ الصغر.

ز/ المرأة :

وكانت للمرأة مكانة مرموقة في المجتمع وتتضح ذلك من كثرة الأعلام النساء اللاتي تترجم لهن في كتب التراجم.

ح/ الإستمتاع بالحياة والخروج إلى النزهات واستغلال أوقات فراغهم في المتعة والمدح والنزهات النهرية وإقامة الحفلات والتمتع بالطبيعة.

المرأة في المجتمع الموحدي:

يعزو المراكشي أسباب اختلال أحوال المرابطين إلى ظهور مناكر كثيرة في بلادهم ذكر منها استيلاء النساء على الأحوال وإسناد الأمور إليهن، حتى صارت كل أمرأة من أكابر لمتونة وسوفة مشتملةعلى مضر وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ويفهم من عبارة صاحب المعجب أن المراة المرابطية لم تشارك في الحياة الإجتماعية فحسن، بل كان لها دور بارز في الحياة السياسية أخذ يتعاظم تدريجياً حتى أضحت تسير الأمور وفق هواها، وتفرض حمايتها على المبطلين والمفسدين.

ولم يقدر للمرأة الموحدية أن تلعب مثل هذا الدور، بارز أو أن تشارك في الحياة السياسية ولكن الموحدين أتاحوا لها فرص التعليم وجعلوها تشارك في الحياة العلمية والإجتماعية وبرزت منهن أسماء لامعة مثل الأميرة زين بنت يوسف بن عبد المؤمن التي درست علوم الدين واللغة ونبغت في علم الأصول وتدل كتب التراجم على أن المرأة الأندلسية شاركت في كثير من مجالات الحياة في هذا العصر فنبغت نساء كثيرات في الطب مثل أخوات ابن زمر الأندلسي، وقامت بعض النساء بما يشبه مهنة التمريض في أيامنا على نحو ما يحكى ابن عربي إذ يقول "مرض عندنا بإشبيلية رجل فأخذته الصالحة زينب تمرضه في دارها بنفسها في سماء الادب ثريات كثيرات مثل حفصة بن الركونية وهي من أشهر شواعر العصر، وكانت بجانب الأدبية تتولى تعليم النساء في دور الخلفاء ولها مدائح في عبد المؤمن بن علي وفي ذلك ما يشير إلى المرأة الأندلسية شاركت بجهودها في المجتمع الموحدي.

موقف الموحدين من اليهود والنصارى:

كان اليهود والنصارى من العناصر التي يتألف منها المجتع الأندلسي وقد عوملوا معاملة طيبة بعد الفتح الإسلامي للأندلس، فرتك لهم المسلمون حرية العقيدة واكتفوا منهم بأداء الجزية، وقد أسلم كثير من النصارى من غير إكراه وهم الذين استعربوا وكانوا واليهود مساوين لوبون وذكر أن إسبانية العربةي كانت البلد الأوروبي الوحيد الذي كان اليهود يتمتعون فيه بحماية الدولة ورعايتها[39].

([39]) المرجع ، السابق.

ولكن الموقف تغير في هذا العصر فقد أضحى المسلمون يخوضون حرب جهاد ضاربة ضد النصاري للدفاع عن الأندلس.

عناصر السكان:

كان المجتمع الأندلس يتألف من عناصر متنوعة من السكان كالعرب والبرير والنصارى واليهود.

وكانت الأصول العربية التي سكنت الأندلس مختلفة الأنساب، ترجع إلى قبائل عربية متعددة، وقد ظلت تتردد في هذا العصر أسماء أدباء وعلماء تدل على أنسابهم العربية مثل القرشي، القصرى الأنصاري، القشيري، القحطاني، والكلبي.

وكان كثير من عرب الأندلس يمتلكون إقطاعيات كبيرة يكلون أمر زراعتها إلى العامة بينما يقيمون في صنعاتهم بالقرب من المدب. واتخذ العرب الذين استقرا في المناطق الزراعية بعيداً عن المدن حصوناً وأبراجاً للاحتماء فيها مثل حسن مراد الواقع بين إشبيلية وقرطبة، وقلعة بني سعيد المعروفة بقلعة يحصب وتقع في إقليم غرناطة.

الأحوال الإقتصادية:

وضع عبد المؤمن بن علي نظاماً دقيقاً لضبط أحوال البلاد الإقتصادية فعمل على تخطيط حدود مملكته ومسح جميع أراضيها وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان ولاية، ومن خواصها وثروتها وغلاتها، وكان يرمي بذلك من جهة إلى تقدير الضرائب تأديتها على ولاية ومن جهة أخرى إلى أن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير البند وأنواعه. وهذا يحدده ابنه أبو يعقوب يوسف الذي يصفه بن خلكان بأن "كان خبيراً بشئون مملكته، دؤوباً على النظر في الأمر، وكان عارفاً بالشئون المالية وضابطاً لخراج مملكته[40].

نظام المجتمع الموحدي:

كان النظام الإجتماعي الذي وضعه المهدي لدولة الموحدين، يقوم على ركيزيتن رئيستين هما التفاوت الطبقي والعصبية القبلية فقسم جماعته إلى طبقات تتفاوت فيما بينها،

([40]) فوزي عيسى ، الشعر الأندلس في عصر الموحدين .

وجعل على راس هذه الطبقات أصحابه العشرة سماهم أهل الجماعة "وهم المهاجرون الأولون الذي أسرعوا إلى جانبه، وتلى هه الطبقة طبقتان أخريات هما أهل خمسين وأهل سبعين، وهم الذين انخرطوا في سلك الدعوة بعد أهل الجماعة، وتأتي بعد ذلك طبقة رابعة هي "طبلة الطلبة" (وهم علماء الموحدين) ثم "طبقة الحفاظ" (وهم صغار الطلبة)، "وهذه الطبقات لا تجمعها قبلية واحدة بل من قبائل، وكان يسميهم المؤمنين.

المبحث الثالث

الحياة السياسية في الأندلس

يقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحله الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي ولاسياسي، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان ولكنه لم يقدم إلينا في مراحله الأخير، سوى صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود وتعاقب المحن، والإنحدار البطئ المؤلم إلى درك الضريبة والذلة والسقوط.

وليس التاريخ تعاقب للأجيال والأمم، وتبدل للحضارات والدل، ولكن الصراع الطويل الذي خاضته الأمة الإسلامية في الأندلس، قبل استسلامها إلى قدرها المحتوم يبدأ التاريخ صفحة رائعة قلما تقدمها أمة من الأمم[41].

كانت الأندلس تعيش حالة من الإضطراب وذلك لاختلاف الولاة عليها، لما صارت الأندلس لبني أمية، و توارثوا ممالكها، و انقاد إليهم كل أبي فيها، و أطاعهم كل عصي، عظمت الدولة بالأندلس و كبرت الهمم، و هدأت إثر ذلك الأحوال وكان الأمراء ينعتون أنفسهم بأبناء الخلفاء، فملكوا البلاد وعظم شأنهم وكبترت دولتهم فأظهروا الهيبة في كل الأمور وعظموا العلماء وأخذا بأقوالهم ،وإحضارهم إلى مجالسهم واستشارتهم وذلك انضبط لهم أمر البلاد.[42]

([41]) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، 3 ، 16 ، القاهرة ، مطبعة لجنة التاتاليف للترجمة والنشر.
([42]) محمد عبد المنعم خفاجي ، قصة الأدب في الأندلس ، 16 : 67 .

وقد بلغت الدولة في عصر الأمويين قمة مجدها وأصحبت قرطبة قبلة الملوك وكعبة العلماء، وملاذ الحضارة والثقافة، كان أشهر ملوكهم الناصر الذي شجع العلوم والآداب والثقافة تشجيعاً كبيرا بلغت الدولة في عصره ذروة مجدها.

فلما استفحل أمره صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور ثم أخذ في بناء المتنزهات، ثم جعل مدينة الزهراء المدينة الأولى لملكه فعني بها وبمبانيها.

ولذلك سمى المؤرخون هذا العصر عصر الأندلس بالعصر الذهبي فقد راجت فيه سوق العلم والأدب وارتقت إليه الفون وكان بلاط الناصر مزدحماً بالعلماء ورجال الأدب والفن واستمر الحال كذلك حتى وقعت الفتنة بسحد بعضهم لبعض وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي زينت عليه، فاستبد ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك حتى في الألقاب حيث أنهم تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب النعيم[43].

وعلى الغرمن الضعف السياسي لاذي كانت عليه الأندلس في عهد ملوك الطوائف حيث احتدمت الخصومات والحروب بين الحاكمين واستعن كل أمير على خصومه بقوة، إلا ان العلوم والفنون شهدت نوعاً من الإزدهار وتنافس الملوك في تشجيع العلماء والأدباء وحاول كل أمير أن يتشبه بالخلفاء في بسطة اليد وتقريب الشعراء، فعبّر ابن رشيق عن ذلك بقوله[44]:

ممـا يزهدني في أرض أندلس &&& أسمــاء مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها &&& كالهر يحكيانتفاخاً صولة الأسد

ثم خلف ملوك الطوائف على حكر الأندلس المرابطون والموحدون وكانت دولة المرابطين تشبه في قيامها ونموها واضمحلالها حليفتها، دولة المودينشبهاً عجيباً.

([43]) المقري ، نفح الطيب ، 2 ، 92 ، 93 .

([44]) ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعراء ، 246 حققه مي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ،بيروت ، لبنان.

فكلا الدولتين قد وضع أسها داعية ديني وقاد الجند الذين عمرتهم الحماسة الدينية قادة عظام موهبون من نصر إلى نصر، فأنشاوا دولة زودوها بنظم معينة، ولكن ما لبست الدولتان أن انهارا بمثل السرعة التي قامتا بها.

ولما ضعفت دولة الموحدين في الأندلس قام بابن الأحمد وقضى عليها بالأندلس وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة قد حكم من ملون هذه الدولة الأندلس الكثيرون وقد استطاعوا أن يستردوا معظم بلاد الأندلس من الأسباب إلا أنهم قد ضعفوا فيما بعد، لذلك سقطت الأندلس في أيدي الأسبان وبذلك انتهنت دولة العرب والإسلام في أسبانيا[45].

الفصل الثاني

الحياة الأدبية في الأندلس

المبحث الأول: شعــراء الأندلس

المبحث الثاني: موضوعات الشعر الأندلسي

المبحث الثالث: النثــر في الأندلس

([45]) المرجع السابق.

الحياة الأدبية في الأندلس

مقدمة:

كان هذا الازدهار الذي تحدثت في الحياة الفكرية يواكب الإزدهار الكبير الذي شهدته الحياة الأدبية في عصر الموحدين. ولم يقتصر هذا الإزدهار على مجال وإنما أمتد ليشمل كل مجالات الأدب من شعر وموضح وزجل ونثر، وموضوعات وكان هذا الإزدهار تشجيع الدولة الموحدية للأدب.

كان أمراؤها على حظ كبير من العلم والثقافة، ومنهم من نبع في الشعر كالأمير أبي الربيع سليمان حضير عبدالمؤمن، وكان مظاهر تشجيع الموحدين للآدب فتح أبوابهم للشعراء والاباء، والاهتمام بعقد الندوات الآدبية، وكانت هذه الندوات من ابرز الظواهر في الحياة الأدبية في ذلك الوقت، وكان الأمراء يحرصون الشعراء في التهنئة والإنشاد بهذه الانتصارات وكانت هذه الندوات تعقد أيضاً في قصور الأمراء حيث يجتمع الشعراء الأندلسيون والمغاربة ويتبارون في إنشاد الشعر كما كانت فرصة للمناظرات والمعارضات بين أدباء الأندلس وأدباء المغرب.

وقد أدى هذا التنافس بين الأندلسين والمغاربة إلى نمو النزعة الأندلسية وإلى إشتداد تعصب الأندلسين لوطنهم، فكتب ابو الوليد الشقندي (ت 629هـ) رسالة في فضل الأندلس يرد بها على تفضيل ابن المعلم الطنجي للمغرب وكان قد التقى به في إحدى الندوات الأدبية في حضور الأمير أبي يحيى بن أبي زكريا ناصر بني عبد المؤمن وقد أطنب الشقندي في تعداد محاسن الدعوة المهدية؟ أبسقوت الحاجب؟ أم بيوسف بن

تاشفين الذي يولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً ولا رعوا له قدراً؟.

وتعرض الشقندي في رسالته للمفاضلة بين علماء الأندلس وعلماء المغرب فأخذ يفتخر بعلماء الأندلس وأدبائها المبرزين في الفلسفة والطب والتاريخ والشعر والبلاغة كما أشاد بمدن كثيرة وذكر ما أشتهر به من محاسن[46].

وهذه النزعة الأندلسية نجدها واضحة عند كثير من أدباء عصر الموحدين ففي كتاب (المطرب) نرى مؤلفة بن دحيه أندلسيا قوي الشعور بأندلسيته، يعتبر بشعراء قومه، ويندد بالمشارقة، وبخاصة أهل العراق. ونجد في تعليقات ابن ديحه على بعض الحوادث ما يصور أنفته من الظلم اللذي يقع على أهل بلده ويبرز قوميته الصادقة في الانتصار لشعراء وطنه، وفي ضوء هذا يمكن أن نفسر اهتمامه بالمفاضلة بين أدباء الأندلس وبين أدباء المشرق في مواضع كثيرة في كتابه.

وفي كتاب "زاد المسافر" لأبي بحر صفوان بن إدريس يمكن أن نرى صورة أخرى من صور الاعتزاز بالأندلس. فقد كتب صفوان رسالة إلى أحد أمراء الموحدين وهو عبدالرحمن بن يوسف بن عبد المؤمن يفتخر فيها بمدن الأندلس.

بيئات الشعـراء:

من الظواهر التي برزت في الحياة الدبية في عصر الموحدين، تنقل الأدباء والشعراء في البيئات المختلفة، فهم دائبوا التنقل بين بلدان الأندلس والمغرب وشمال إفريقة والمشرق، إما لطلب العلم، أو للانتجاع بالشعر أو الحج والتجارة أو هرباً من تقلبات السياسة، وقد ساعدت هذه الرحلات على كثرة صلاتهم بالأدباء والعلماء كما هيأت لهم المشاركة في الحياة العلمية والأدبية في تلك البلاد التي رحلوا إليها.

وبعد اختلال احوال الأندلس السياسة، هاجر عدد كبير من الأدباء والشعراء من جزيرتهم فاردينا بأرواحهم، واختلفت وجهات هؤلاء الشعراء فاتجه بعضهم إلى مراكش

([46]) دواويين شعرية لشعراء الأندلسيين، هدى شوكت بهنام، ط1، السنة 2013-1434هـ، ص 55.

وغيرها من مدن المغرب وهاجر بعضهم إلى بجايه وتونس وشمال أفريقيا، ورحل آخرون إلى مصر والمشرق.

وقد اسهمت هذه البيئات الجديدة يف توجيه هؤلاء الشعراء المهاجرين وجهات معينة، فاكثروا من مدح المراء والحكام، واصبح شعرهم وسيلة للتكسب والأنتجاع، حتى لنجد أغلب ديوان حازم القرطابي مجرد قصائد نظمها في مدح الحفصيين.

ولم يجد بعض الشعراء في تلك البيئات ما كانوا يطمحون إليه من آمال ولم يستطيعوا "التكيف" مع هذه الحياة الجديدة، وانعكس ذلك في شعرهم فأكثروا من الشكوى والحنين إلى وطنهم كما يستضع في حديثنا عن الشعر[47].

المبحث الأول
شعـراء الأنـــدلس

ابن سهل:

([47]) نفح الطيب، ج1، ص 305.

هو ابو اسحق بن سهل ولد في إشبيلية سنة 609هـ كان ابوه سهل من يهود إشبيلية ولم تسعفنا المصادر بأية معلومات عنه وكان يهود الأندلس يتوافدون على دراسة العربية ويخالطون المسلمين في حلقات العلم.

وقد حذى بن سهل حذوهم فتلقى العلم عن أشهر علماء عصره أمثال أبي علي الشلوبين وابي الحسن الدباج وجمعت مجالس العلم بينه وبين ابن سهل فإنعقدت بينهما صداقة قوية.

وقد ظهر نبوغ بن سهل وتفتحت شاعريته في وقت مبكر فيذكر ابن سعيد أنه "كان من عجائب الزمان في ذكائه على صغر سنه"[48].

ويذكر ابن الهيثم ابن ابي غالب الإشبيلي الشاعر نظم قصيدة يمدح فيها المتوكل على الله محمد بن يوسف ابن هود وكانت أعلامه سوداء لأنه بايع الخليفة العباسي ببغداد فوقف ابن سهل على قصيدة الهيثم وهو ينشدها لبعض أصحابه فقال الهيثم زد بين البيت الفلاني والبيت الفلاني:

أعـلامه السـود أعلام بسؤدده

كأنهنـا بغـل الملك خيلانـا

وفي إشبلية عاش ابن سهل حياة لامية إذ كان يخرج مع أصدقائه منتزهات إشبيلية يرتجلون الشعر. وبادر لأنواع اللذات ميداناً فميداناً لاتكاد تخلو من التفرج في تلك الأرواح والقصور والشباب ممدود، وهوى النفس هناك مقصور ومعنى من الوجوده[49].

ولكن حياته لم تمض كلها على هذا النمط فلم تلبث إشبيلية أن تردت في حماه الفئة بعد مقتل ابن هود سنة 635هـ وتنافس على حكم إشبيلية بعض أبنائها، مثال أبي عمرو وابن الجد وقد اتصل به بن سهل ومدحه بأربعة قصائد إنشاد فيها إلى جهود بن الجد في إطفاء نار الفتن والتخلص من اعدائه فقال في إحداهما[50]:

([48]) نفح الطيب، ج1، ص 282.

([49]) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات ألندلس، ص 192.

([50]) ديوان ابن سهل، ص 138.

و شقيّ قومٍ لا كما زعمَ اسمهُ &&&&بارَ ى علاكَ فما جرى حتى كبا
فرَ أى حُسامَكَ فِيه برقاً ساطِعاً &&&& و رأى منلهُ فيكَ برقاً خلبا
ألبستهُ طوقَ المنيةِ أحمراً &&&& فكسوتنا التأمينَ أخضر مخصبا

وحين رأى ابن سهل تفاقم الأحداث، وادرك أن مدينته موشكة على السقوط، قوض خيامه ورحل عنها سنة 641هـ، وودعها بقصيدة مؤثرة قال فيها[51]:

ولما عزمنا ولم يبق من &&&& مصانعة الشوق غير اليسير
بكيت على النهر أخفي الدموع &&&& فعرّ ضها لونها للظّ هور
ولو عرف السّفر حالي إذن &&&& لما صحبوني عند المسير
إذا ما سرى نفسي في الشراع &&&&أعادهم نحو حمصٍ زفيري

وكانت غاية ابن سهل أن يرتحل إلى سبته ولقه من في طريقه بشريش ومدح صاحبها أبا عمر ابن خالد كما مر على جزيرة ومدح صاحبها ابا عثمان سعيد بن حكم، ثم ألقى عصا التسيار في سبته واتصل بواليها ابن خلاص وعمل كاتباً له، وبدأ هناك عهداً جديداً ولكنه لم ينس مدينته إشبيلية وهزته أحداثها وهو بعيد عنها فنظم قصيدة مؤثرة يصور فيها ما كربدته أثناء الحصار ويستدعي ابن خلاص ممدوحه لنجدها وفيها يقول[52]:

حمص التي تدعوك جهد دعوة &&&& لغياثها إن لم تجهز عسكرا
حفت مصانعها الأنيقة بالعدا &&&& فترى بساحة كل قصر قيصرا
ما تعدم النظرات حسن مقبلا &&&& منها دلا الحراث حظاً مدبرا

وتدل هذه الأبيات على مشاركة ابن سهل في أحداث بلدة وتنفي ما يدعيه د. إحسان عباس من أن انتماءه إلى فئة من الأقليات حينئذ لم يجد لديه المأسي الاجتماعية التي كان يعانيها وطنه.

([51]) الوافي بالوفيات، ج6، ص 5.
([52]) الوافي بالوفيات، ج4، ص 125.

وقد اثرت الفترة التي قضاها في سبته في شعره، فأقل من الغزل، واتجه بشعره إلى المدح وغيره من الموضوعات الجادة كالرثاء، إذ نجد له قصيدة في رثاء والدة ابن خلاص، كما نجد له قصيدة حجازية كلفة ابن خلاص ينظمها.

وقدر لحياة ابن سهل أن تنتهي في سبته نهاية مأساوية فقد أجمعت أكثر المصادر على أنه مات غريقاً حين سافر في غراب سبتي أسمه "الميمون" مع أبي القاسم محمد بن الحسن رئيسها أبي ذكريا الخوص[53]. ويذكر الصفوي أنه اخترم في نحو الأربعين أو قوتها بقليل، ومعنى ذلك أن حادثة كانت سنة 649هـ وعلى هذا تجمع أكثر المصادر.

موضوعات شعره:

يشغل الغزل مساحة واسعة في ديوان ابن سهل إذ تبلغ قصائده فيه نحو ثلاث وسبعين قصيدة من مائة وإحدى وثلاثين قصيدة هي كل مجموع قصائده في الديوان. ومعنى ذلك أن قصائده في الغزل تزيد على نصف ديوانه ويأتي المدح في المرتبة الثانية، ويقل شعره في الموضوعات الأخرى إذ له تسع قصائد في وصف الطبيعة والخمر، وأربع قصائد في الرثاء في أغراض أخرى.

وإذا نظرنا إلى قصائده الغزل نجد أغلبها يدور حول عشقه لموس (62 قصيدة) والباقي في بعض الغلمان (إثنتان) في فتى يدعى محمداً، وواحدة في غلام من بني الحسن بالإضافة إلى ثلاثة أخريات واحدة في فتى أوحد والثانية في فتى مليح، والثالثة في غلام لم يذكر أسمه.

ويكاد الغزل الإنثوي يختفي من شعره إذ لا نجد في هذا المجال إلا ثلاثة مقطعات تجنح في معطعها إلى التكلف ولا ترسم صورة واضحة المرض.

([53]) نفح الطيب، ج4، ص 125.

فإبن سهل إذن شاعر الغزل الغلماني الذي يجيد فيه ويقصر معظم شعره عليه، وقد أدار حول موسى وسيم إشبيلية الذي كان شعراؤها يتغزلون فيه، فقد تغزل ابن حجاج الغافقي ووصف بأنه كان محباً وعنده مهجوراً [54].

كان أحمد المقرني المعروف بالكساد شاعراً وشاحاً زجالاً إشبيلياً، وقال في موسى الذي تغزل فيه ابن سهل[55]:

مـا لموسى قـد خـرللهلمـا &&&& فاضـى نوراً غشاه ضوء سناه

وأنا قد صعقت من نور موسى &&&& لا أطيق الوقـوف حين آراه

ويبدو أن الكساد قطع شوطاً في علاقته بموسى، ولما مات رثاه ببعض مقطعات، منها قوله[56]:

هتف الناعي بشجو الأبـد &&&& إذ نعى موسى بن عبد الصمد

ما عليهم ويحهم لو دفنـوا &&&& في فؤادي قطعـة من كبدي

وقد أشار بن سعيد إلى أن موسى هذا كان فتى يهودياً فقال: "كنت مسايراً لابن سعيد في بعض الأيام وإذا بموسى اليهوي الذي أشتهر بحبه قد أقبل من الحمام، وردد حيان[57]، ايضاً فقال "أكثر شعره في صبي يهودي أسمه موسى كان يهواه وكان يقرأ مع المسلمين.

وهذه الروايات المتعددة التي ذكرناها ترسم صورة واضحة لموسى معشوق ابن سهل، فهو فتى يهودي كان يخالط الشعراء ويرتاد معهم مجالس العلم، ونراه يكلف ابن سهل، بنظم موشحة[58]، مما يدل على ثقافته الآدبية، وتوقفنا هذه الروايات أيضاً على أن ابن سهل لم يكن الشاعر الوحيد الذي تغزل فيه وإنما شاركه في شعراء أخرون ولكن ابن سهل تميز عنهم في أنه التغزل فيه ويقول ابن سعيد "حضرت مع ابن سهل يوماً

([54]) نفح الطيب، ج4، ص 125.
([55]) ديوان ابن سهل.
([56]) المغرب، ص 288.
([57]) نفح الطيب، ج4، ص 61.
([58]) اختصار القدح المعلى، ص 28.

مجلس الأستاذ ابي علي الشلوبيني، فدخل فتى أصفر اللون قد كان لشعراء إشبيلية به غرام، فنسخت أية نهاره في صورته سورة الظلام، فقال ابن سهل في ذلك دون افتكار":

كان محياك له بهجة &&&& حتى إذا جاءك ما حى الجمـال

اصبحت كالشمعة لما خبا &&&& منها الضياء اسود فيها الذبال

واغلب الظن أن هذا الفتى الذي اشار إليه ابن سعيد هو موسى ولكن هذه المشكلة الذاتية التي عاشها ابن سهل لم تكن في بداية أمرها إلا "خفقة مراهقة" كما يقول د. إحسان عباس، ثم تعقدت مع الزمن، فإذا هي محور الإنفعال وموضوع اشلعر ومجل الثقافة ومنبع الصدق الفتى، ثم هي الطريقة التي يحس الشاعر أنها تميزه بعين معاصريه، فقد كان معاصروه يتحدثون يف غزلهم الغلماني وغير الغلماني –على الأغلب- حديث من يبصر الشيء فيحدده بمعالمه، فكانت "اللياقة الكلاسيكية" ترضى ذلك منهم وتتطلبه، أما ابن سهل فقد منح غزله مستوى "العذرية" البدوية وأودع فيه معنى الحب في نقائه الطبيعي، وشحنه بالدموع والذلة والعبودية وركب فيه شعلاً من وقرة المحرمان[59].

ونظن أن خلقة ابن سهل كان لها أثر في تحوله إلى الغزل الغلماني فيذكر ابن سعيد أن "خلقته تقتحمها عيون المبغضين، إذ صيغ في صورة ابن الصائغ، وعيف كما يعاف سؤر الكلب الوالغ"، ولعل ابن سهل كان يحس أن قبح منظر، لن يهيئى له الحب الطبيعي، فكان غزله في موسى تنفيساً عن تلك الرغبات المكبوتة في جوانحه، ولذلك كان غزله أقرب إلى الغزل الأنثوي فنجده يتغنى بسحر الحاظه، وتورد وجنتيه، وتعطيل جيده من الحلى وجمال الخال على خده مما يتمثل في قوله:

من لي به اختلفتْ فيه الملاحةُ إذ &&&& تْ إلى غيرِ هِ إيمَـا مُختَصـر

مُعطَّلٌ فالحُلى مِنهُ مُحَـلأَّة &&&& تَغنَى الدَّراري عن التقليدِ بالدُّرَر

بخـده لفـؤادي نسبـةٌعجبٌ &&&& كِـلاهُما، أبداً، يَدمـى من النظر

(59) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص 75.

وخـالهُ نقطةٌ من غنجِ مقلتهِ &&&& أتى بها الحُسنُ من آيلتِه الكُبَر

جاءت مِن العَين نحوَ الخدّ زائِرة &&&& واقها الوردُفاستغنتْ عن الصدر

بعضُ المحاسِنِ يهوى بعضَها طرَباً &&&&تأمّلوا كيفاهالغُنجُ بالحَوَر

وكان ابن سهل –مع اهتمامه بوصف محاسن معشوقه- لم يفحش في غزله، ولم ينزلق فيما أنزلق فيه شعراء الغزل الغلماني من عبث وإسفاف، وإنما إرتفع بغزله إلى مستوى الشعراء العذريين، واكتفى من محبوبه بمجرد التعاطف معه أو العطف عليه، وكان في مخاطبته له حريصاً على أن يؤكد له طبيعة هذه العلاقة أو هذا الحب العذري على نحو ما يبدو في قوله[60]:

يا يسوف الحسن ويا سامر &&&& يا الهجر أشفق للهوى العذري

ومع أن ابن سهل كان يلتقي بمحبوه إلا أنه أكثر من ابلكاء والتذلل معاً يجعلنا نشك في أن المسألة لا تقتصر على مجرد عشق شاعر لغلام فحسب، وإنما نظن أن هناك بعداً أخر لهذا الغزل، فقد أستطاع ابن سهل أن يتخذ من قصة الفتى اليهودي رمزاً للتعبير عن مشاعره الدينية والقومية تجاه النبي وتجاه رب موسى وذلك على طريقة اشلعراء الصوفيين الذين اتخذوا من الغزل رمزاً ووسيلة للتعبير عن مواجدهم وقد سبق أن ذهب بعض الدلائل التي تقوي هذا الظن، لعل أهمها تشكك القدماء في إسلام ابن سهل، فقد ذكر المقري أنه كان يتظاهر بالإسلام ولا يخلو مع ذلك من قدح واتهام[61]، كما ذكر عن بعض المتأخرين قوله: شيئان لا يصحان: إسلام ابن سهل، وتوبة الزمخشري من الإعتزال، وكان ابن سعيد أقرب اصدقاء ابن سهل يتشكك في عقيتدته فسأله ذات مرة قائلاً: بحرمة ما بيننا ألا أزلت عني شك الناس فيكم، وصدقتني هلى أنتم على ديني أسلافكم أو دين المسلمين؟ فقال ابن سهل: للناس ما ظهر ولله أستتر. وهذه الإجابة لا تحسم المسألة بقدر ما تزيدها غموضاً، وهذا ما جعل ابن سعيد يقول: فأضربت عن مناقشته، ولم أقف له على ما أثبت أو أنفيه".

([60]) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص 30.

([61]) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص 157.

وقد ذهب بعض القدماء إلى صحة إسلامه وإستدلوا على ذلك ببيتين من الشعر نسباً إليه وهما[62]:

تسليت عن موسى بحب محمد &&&& هديت ولولا الله ما كنت أهتدي

وما عن قلى قد كان ذاك وإنما &&&& شريعة موسى عطلت بمحمد

ونحن لا نطمئن إلى نسبة هذين البيتين لإبن سهل، لأن ابن الأبار نسبهما إلى شاعر أخر يدعى عبدالرحمن السالمي، كما نسبهما ابن سعيد وهو صديق ابن سهل وعلى دراية بشعره إلى أبي جعفر الوزغي خطيب جامع قرطبة وقال إنه كان يعشق غلاماً اسمع (عيسى) اشار إلى أنه تتلمذ عليه وذكر أنه توفى 610هـ[63]، اي بعد ولادة ابن سهل بعام.

ولا يكفي أن نستدل على إسلام ابن سهل بقصيدته الحجازية التي يصف فيها ركب الحجيج وهم ذاهبون للحجم لا سيما وأنه لا يصدر في نظمها عن دافع ذاتي، وإنما نظمها بتكليف من ابن خلاص أحد ممدوحيه[64].

كما لا نستطيع ان ندلل على إسلامه بشيوع الثقافة الدينية في شعره لأن يهود ألندلس كانوا يخالطون المسلمين في مجالس العلم، وكانوا يتوفرون على دراسة العربية وحفظ القرآن الكريم وإن لم ينتحلوا الإسلام ديناً.

هذه الأمور كلها تحمل على الشك في إسلام ابن سهل وتدل على أنه كان يتظاهر بالإسلام تظاهراً فرضه عليه واقعه في البيئة الإسلامية، فظل يذرف الدموع، ويكثر من التوجع والتعسر، والشواهد على ذلك كثيرة، فمن ذلك قوله[65]:

قنعت على رغمي بذكرك وحده &&& أدير عليه الخمر والأدمع الحمرا

وقوله:

ذكرك الأعطر يبكيني دما &&&& رب مـــك بشـداه رعفا

([62]) نفس المرجع، ص 244.
([63]) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص 216.
([64]) نفس المرجع السابق، ص 256.
([65]) نفح الطيب، ج2، ص 218.

وإذا كنا نرى أن كثيراً من قصائده لا يمكن صرفها إلى غير الغزل الغلماني المباشر، فإن ثمة إشارات ورموزاً كثيرة لا تقف عند مجرد المعنى المباشر للغزل وإنما أقرب إلى الغزل الصوفي منه إلى الغزل الدنيوي، فمن ذلك قوله:

خررت لذكراه على الترب ساجداً &&&& فإن لاح من قرب فكيف يراني

وقوله:

ويا صاح إن لم تدر أن شقاوة &&&& تلذو هوناً يشبه العزفا عشق

وقوله:

يامن غدا كل لفظ فيه من طمع &&&& عسى وليت سشعري كله غزلا

شوقي إليك ولا حملت شوقي قد &&&& أفنى القوافي واضي الدمع والحيلا

وقوله:

أموسى ايا بعض وكله حقيقة &&&& وليس مجازاً قولي الكل والبعضا

هل يمكن أن ننظر للأبيات على أنها مجرد غزل غلماني؟ وهو نكتفي بالوقوف عند ألفاظها الظاهر دون أن نلتفت إلى ما ينطوي عليه ايحاءات ورموز؟ وإذا نظر إلى مثل قوله[66]:

يمثل لي في كل شيء رايته &&&& وإن سألوا جاوبتهم باسمه عرف

ألا نسأل أنفسنا من هو موسى الذي يتمثل في كل شيء يرأه؟ وحينما نقرأ أبياته التي يتلذذ فيها بالعشق والمكابدة ألا نرى فيها لوناً من ألوان الغزل الرمزي كما في قوله:

نفسي تلذ الأسى فيه وتألفه &&&& هل تعلمون لنفسي في الأسى نسبا

وقوله:

أهواه حتى العين تألف سهدها &&&& فيه وتطرب بالسقام جوارحي

ويشير إلى الطور والمناجاة وكيف خر موسى صعقاً فيقول:

صعقت وقد ناجيت موسى بخاطري &&& واصبح طور الصبر من هجره دكا

(66) محمد رضوان الرأية، تاريخ النقد ألدبي يف الأندلس، ص 79.

ويستحضر صورة النار فيقول:

نأمل لظى شوقي وموسى يشبها &&&& تجد خير نار عندها خير موقد

ويتحدث عن مجبته على قدر فيقول:

بحري القضاء بأن أشقى عليك &&&& وقد أوتيت سؤالك يا موسى على قدر

ويستحضر صوراً أخرى كالعصا والحية، الشبـة الذي تشتت فيه قلبه فيقول:

فعلت فعال عصا الكليم لحاظه &&&& بمصدق دعواه لا يعصيه

تسعى لقلب الصب منها حيـة &&&& أودت به لسعاً فمن يرقيه

وأرى قلوب العاشقين تحيرت &&&& من تتيه في مثل قفر التيه

وعلى هذا النحو يمضي ابن سهل في استحضار قصة موسى لإبراز معانيه فتحدث عن الغرق، ويشير إلى القبس والصعق، يشبه مقلتيه ببنتى شعيب.

وبنتا شعيب مقلتاه وخاله &&&& إلى الصدغ: موسى تولى إلى الظل

وإنما ترد كمقدمة للمدح (ق 125، ق 38)، وتأتي أحياناً أخرى ممتزجة بالغزل (ق 83، ق 114، ق 117)، له خمريتان أريان تمتزجان بالطبيعة (ق 21، ق 17).

وقد فتن ابن سهل بالطبيعة وله فيها مقطعات كثيرة، فمن ذلك قوله[67]:

الأرضُ قد لبِستْ رِداءً أخضَـرا &&&& والطلُّ ينثرُ في رباها جوهرا

هاجتْ فخِلتُ الزَّهرَ كافوراً بهـا &&&& وسِبتُ فيها التُّربَ مِسكاً أذفَرا

وكأنَّ سوسنها يصـافحُ وردهـا &&&& ثغرٌ يقبلُ منه خداً أحمـرا

روُالنهبينَ الرّياضِ تخالُـه &&&& لَتَيَقَـدّقَ في نِجَادٍ أخضَرا

وجـرت بصفحته الصبا فحسبتها &&&& تُنَمّقُ في الصَّحيفةِ أسطُرا

وكأنّإذ لاحَ ناصِـعُ فِضّـةٍ &&&& لمعتهُ كفُّ الشمسِ تبراً أصفرا

أو كالخودِ بدَتْ لَنَا مُبيَضَّةً &&&& تَقَابالخَجَلِ البياضُ معصْفرا

والطّيرُ قد قامت عليه خَطِيبَةً &&&& لم تتخذْ إلاّ الأراكـةَ منبـرا

(67) يوسف عيد، المحقق: يوسف فرحان، معجم الحضارة الأندلسية، دار الفكر العربي، بيروت، ص 224.

وأغلب مقطعات في الطبيعة تأتي على هذا النمط فهي لوحات لا تضم جزئية واحدة، إنما يرسم المنظر الطبيعي بكل جزيئاته.

وينظر إلى الطبيعة نظرة كلية ويعتمد على قراكم الصور الإكثار من التشبيها ليؤلف منها لوحته الشاملة. أخذه من قول الأغشى:

تشب لمقروين يصطليانها &&&& وبات على النار الندى والمحلق

وعلى هذا النحو يمضي ابن سهل في استحضار معاني وصور الشعراء القدماء وترديدها في شعرو بصورة واسعة مما جعل بعض الدارسين المحدثين يتهمه بالقصور في الخيال، ولكنني لا أميل إلى هذا الرأي بل أن تشبث ابن سهل بهذه الناحية وإكثاره منها يرجع إلى رغبته في إظهار الثقافة الإسلامية التي انبهر بها، وتفوق فيها على نظراته من المسلمين، ولعل يتصل بذلك إمعانه في ترديد مصطلحات النحاة فمن ذلك قوله:

إن رمت منه الوصل فعلاً حاضراً &&&& أو مت للاستئناف سين جينه

وقوله:

صححت يأسي من وصالك مثلما &&&& قد صح يأس الحرف من إعرابه

وقوله:

فضضت مكاني إذا جزمت وسائلي &&& فكيف جمعت الجزم عندي والخفض

وفي حدود ما قد قدمناه تتضح لما صورة ابن سهل، فهو شاعر وجداني صرف غزله إلى الغلمان، وسخر بعض هذا الغزل للتعبير عن مواجده عقيدته التي أخلص لها. وقد ارتفع بغزله إلى مستوى الشعراء العذريين وصاغه في الفاظ رقيقة ومعاني سهلة: ومع أنه قد صرف معظم شعره إلى الغزل، فإن مقطعاته التي نظمها في وصف الطبيعة تدل على براعته في الوصف ولكن إشغاله بمشكلته الذاتية، وانفعاله بها، قد استغرقه كل الاستغراف، وحرمة من التحليق والإبداع في آفاق الشعر الأخرى[68].

([68]) نعمان عبد السميع متولي، الشعر الأندلسي، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ص 117.

الرصـافي:

هو أبو عبدالله بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي نسبة إلى الرصافي وهي بليدة صغيرة بظاهرة بلنسية، ولم تشر المصادر إلى تاريخ مولده، ولكن غذا صح ما ذكر المراكشي من أن الرصفاي أنشد راخيته في مدح عبد المؤمن بن علي ولم تكمل له يؤمئذ عشرون سنة، فمعنى ذلك أن مولد الرصافي كان عام 356هـ على وجه التقريب، لأن عبور عبد المؤمن إلى الأندلس كان عام 555هـ، ويذكر ابن الأبار أن الرصافي خرج من مدينته بالنسية صغيراً ولكنه لم يشر إلى سبب خروجه، ويمكن أن نفترض أن أسرته رحلت عن بلنسية لإضطراب الأوضاع السياسية أو بحثاً عن الرزق، وكانت هجرة الرصافي إلى (مالقة) وبها قضى معظم حياته، فتلقى تعليمه في مساجدها وحلقاتها العلمية.

ويشير إلى أنه زار مكناسة الزيتون والمسيلة، يقول:

ولا بمكناسة الزيتون من وطن &&&& أحسن بمنظرها العربي على العجب

وهل بغر الليالي من معرجـه &&&& المبلـة مـن ليلاتهـــا النخـب

ولا ندري شيئاً عن أساسية عبوره بحر الزقاق وزيارته لهاتين المدينتين، وإن كنا نجد في ديوانه قصيدة مدح الموحدين، فهل يعني ذلك أنه في أخبار الرصافي ما يشير.

شعره:

كان للرصتفي ديوان شعر مشهور، وقد اشار إلى ذلك ابن الأبار فقال "وشعر مدون بأيدي الناس، متنافس، وقد حمل عنه، وسمع منه، وقد رواه عه ابو الحسن ابن جبير، وابو علي كسرى المالقي"، ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر الأندلسيين ولم يبق له إلا بعض قصائد متيسرة، أغلبها مقطعات قصيرة وابيات مفردة.

مدائحـه:

رفض الرصافي أن يتخذ الشعر وسيلة للتكسب والإستجداء وقد اشار إلى ذلك ابن الأبار فقال: طإنه لم يبتذل نفسه في خدمة، ولا تصدى لانتجاع بقافية"، وقد جرى الرصافي في ذلك على سنة اتبعها أمثاله وبلديوه من أهل بلنسية وشرق الندلس من الإنصراف إلى اشلعر لا يبتغون به عطية ملك، ولا يبتذلونه في خدمة أمير.

الشعراء الأندلسيون الذين أبوا أن يتخذوا الشعر وسيلة مباشرة للتعيش، ولذلك فكثيراً ما نجد الرصافي يشير إلى أن عطايا المدوح كانت تصله وهو في بيته كقوله:

نعماء جدت بها وإن لم نلتق &&&& فيض يدندن حولها ويحوم

ممدوحوه:

كان الوزير ابو جعفر الوقشي في طليعة ممدوحي الرصافي، وقد أشار ابن الأبار إلى الرصافي: مدحه بما ثبت في ديوانه وأعرب عن جلالة شأنه.

وفيما يشيد الرصافي بممدوحه، وببني سعيد عامة فيقول[69]:

إنَّ الكرامَ بني سعيدٍ كُلَّما &&&&ورثوا النَّدى والمجدَ أوحدَ أوحدَا

قسموا المعالي بالسَّواء وفضَّلوا &&&& فيها عملادهمُ الكبيرَ محمَّدَا

يا واحد الدنيا وسوف اعيدها &&&& مثنى وإن أغنى نداؤك موحدا

الناس أنت وسر ذلك أنه &&&& أصبحت فيهم بالعلا منفردا

شيم تفوق شذا المديح وإن غدا &&&& مسكا بأقطار البلاد مبدداً

(69) سيد احمد عمارة، شعر بني أمية في الأندلس، ص 98.

المبحث الثاني
موضـوعات الشعر الأندلسي

الغزل:

كان الغزل من أهم الموضوعات التي أجتذبت الشعراء في الاندلس، وظل يستمد قوته ونشاطه من الحياة الأندلسية التي وشحت لأزهارها بما توافر فيها من ترف وتحضر. ومن يقرأ شعر الأندلسين يتبين أنه ما من شاعر أندلسي إلا وكان يضرب بسهم فيه. وليس هذا بقريب ولأن الغزل تعبير عن عاطفة الحب الإنسانية التي تسيطر على الناس جميعاً.

ويدل شعر الأندلس على أن الشعراء الأندلسيين استطاعوا أن يتحصلوا من حد ما من الطريقة التقليدية يف الغزل. فقد خفت نغمة البكاء على الأطلال، وأقل الشعراء من ترديد الأوصاف التقليدية، ونظن ظناً أن موجة قوية من الغناء قد احتدمت من في هذا العصر، وتركت آثاراً بعيدة في الغزل.

وكما وجد من الشعراء من كان يغني أشعاره على الأوتار مثل أبي إسحاق إبراهيم بن أيوب المدسي فمن غزله كان يغنى به قوله:

أنا سكران ولكن &&&& من هوى ذاك الفلاني

كلما رمت سلواً &&&& لم يـزل بين عيـاني

وما كان يتغنى به ابو اسحاق قوله:

حبيبي ما لحسبك من مراد &&&& سوى أن لا تدوم على البعاد

وإن كان إبتعادك بعد هذا &&&& مقيماً، فالسـلام على فؤادي

قال ابن سعيد "وكان أو اسحاق إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار لم يبق لسامعه على الهموم من آثار، مع أخلاق كريمة وآداب كغنسكاب الديمه".

والأبيات هذه تعطي فكرة واضحة عما تميز به غزل الأندلسين، فالمعاني واضحة، والألفاظ سهلة تكاد تغترب من لغة العامة، والأوزان رشيقة.

وقد إزدوجت الطريق بالغزل –كعادة الغزل العربي في عصوره المختلفة فإنقسم إلى ضربين متباينين: أحدهما: مادي غباحي، والآخر يتميز بالعفاف وكان الضرب الأول هو الغالب حيث جاء إنعكاساً لما كانت تنخمس فيه بعض البيئات من تحت وهو تحرر جعل الشاعر الأندلسي يعبر عن غرائزه وأحساسيسه إزاء المرأة تعبيراً صريحاً ويصف المرأة وصفاً حسياً لا تحفظ فيه ولا احتشام. وكان يرفض هذا الغزل كثرة الجواري والمغنيات وإنتشار الحانات ودور اللهو.

ويتردد في غزل الشعراء اسماء بعض الجواري مثل "نسيم" جارية بن همشك وكانت كما يصفها ابن سعيد "تختلس القلوب والألباب وتعيد إلى أخلاف الشيب الشباب" ويكاد بن سفر شاعر المديه –يكرر تجربة سعيد فيقول[70]:

وواعتها الشمس تجنح للنوى &&&& بزورتها شمساً وبدر الدجى يسري

فعطرت الآفاق حولي فأشعرت ... بمقدمها والعرف يشعر بالزهر

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ... كما يتقصى قارئ أحرف السطر

فبت بها والليل قد نام والهوى ... تنبه بين الغصن والحقف والبدر

والمثالات السابقات يتشابهان في وجوه كثيرة، فهما يصوران خصائص الغزل المادي وتتشابه صورة المرأة فيهما، فهي تستمد جمالها من الروض بأغصانه وورده وتعطي الآفاق با{يجها الفواح، ونعجب فيهما ببعض الصور الجميلة كتشبيه الساعدين بالوشاح وتشبيه المرأة بالروضة وتشبيه مشيتها في ابيات بن سفر، فهي تبدو تارة أخرى كالنسيم يتهادى فوق صفحات النهر، وقد مال ابن سعيد إلى الإيجاز والكتابة في تصوير موقف الغرام بينما مال بن سفر إلى الفصيل والتصريح.

([70]) فوزي عيسى، شعر الطبيعة، كلية الآداب الإسكندرية، ط1، دار المعارف الجامعية، ص 9.

وقد أكثر الشعراء من التركيز على هذا الجانب الحسي حتى بلغ بعضهم إلى حد التهتك والفحش.

ويمكن من خلال هذه النماذج أن نرسم صورة واضحة للمراءة التي يريد تتمتع بقدر كبير من الجرأة والتحرر، ولا تمانع في أن تمنح عاشقها بسخاء، وتتكرر هذه الصورة في الغزل المادي بشكل بارز بل نلحظها ايضاً يف غزل حفصة الركونية فهي لا تجد حرجاً في أن تزور عاشقها في منزله، وتفرض نفسها عليه، وتحاول إغراءه بشتى السبل والوسائل على نحو ما يبدو في قولها تخاطب معشوقها ابا جعفر بن سعيد:

أزورك أم تزور فإن قلبي &&&& إلى مـا ملتم أبـدا يميل

فثغـري مورد عذب زلال &&&& وفرع ذؤابتي ظل ظليل

وقد أملت أن تظمأ وتضحى &&&& إذا وافى إليك بي المقيل

فعجل بالجواب فمـا جميل &&&& أناتك عن بثينة يا جميل

وكان يقابل هذا الضرب من الغزل المادي ضرب آخر يلبس فيه اصحابه ثياب العفة وكان امتداداً لموجه الغزل العذري الرباع الهجري على يد ابن داؤود الأصبهاني. وطبيعي أن تتجه معاني الغزل العذري إلى دروب أخرى غير تلك التي سلكها شعراء الغزل المادي فالشاعر يبدو في غزله محباً صادقاً لا ينظر إلى المرأة تلك النظرة المبتذلة ولكنه ينظر إليها نظرة أخرى ترتفع عن أدران الحس، وهو لا يعنى بأوصاف المرأة الحسية ولكنه يعنى بوصف عواطفه الصادقة إزاءها، فيحدث عن أثر الحب في نفسه ويفيض في وصف ما يعانيه من عذاب ووصب.

وتصاغ هذه المعاني في الغالب في أسلوب رقيق والفاظ سهلة كما يبدو في هذه الأبيات لابن الحسن بن معاوية الطرياني[71]:

لا أراك الله يـا أملـي &&&& وما رأت عيني من السهر

خلقت نفسـي منزعـه &&&& قبل أن تحتل في بصـري

(71) نفح الطيب، ج4، ص 138.

فقدت ملأى تجيش هوى &&&& بانفعال الشوق والفكر

وهذه صورة من صور التفاني والمعاناة في الحب فالشاعر لا يتمنى لصاحبته أن تعاني ما يعانيه من سهر وعذاب ورغم ما يشعر به من قسوة في معاملتها فإن هذه لا تصرفه عنها بل يرضى أن يظل تحت طاعتها، ورهن إشارتها ويجدر راحة يف أن يخضع لها خضوعاً تاماً، وهذه هي الصور المألوفة لحب العزريين فهو حب بائيس يبلى به صاحبه ولكنه يلذ به ويرضى بعذابه، على أن أجمل ما في الأبيات هو حب بائيس يبلى به صاحبه ولكنه يلذ به ويرضى بعذابه وعلى أن أجمل ما في الأبيات هو قدرة الشاعر على اختيار الألفاظ الرقيقة العذبة القريبة من روح العصر فهو حين يخاطب صاحبته في البيت الأول يختار لذل لفظه رقيقة وهذه الرقة التي نلمسها في أبيات الطرياني تمثل ظاهرة بارزة يف هذا اللون من الغزل ونستطيع أن نلمسها في أمثلة كثيرة لشعراء العصر، فمن ذلك هذه الأبيات لابن غالب الاستجي[72]:

تخش قولاً قد عقدت الألسنا &&&& وابعث خيالك قد سحرت الأعينا

واعطف عليّ فإنّ روحي زاهقٌ &&&& وانظر إليّ بنظرةٍ إن أمكنا

لا يخدعنّك أن تراني لابساً &&&& ثوبي فقد أصبحت فيه مكفّنا

ما زال سحرك يستميل خواطري &&&& بأرقّ من ماء الصفاء وألينا

والشاعر يصور في هذه الأبيات جذوة الحب المتوهجة يف أعماقه، ويصف ما أحدثه الحب في نفسه، فقد أصابه النحول، وكان روحه أن يزهق وإذا كان عذابه والأبيات كسابقتها تذوب رقة وعذوبة.

وكان يحيا بجوار الغزل العفيف لون آخر من الغزل يبتدي فيه اصحابه وينحون فيه منحى الشريف الرضي في غزله ويسلكون مسلكه في حجازياته كما فعل ذلك قبلهم بن خفاجه الذي أشار في مقدمة ديوانه إلى تأثره بطريقة الشريف الرضي في غزله، فيجد الشعراء يكثرون من حشد العناصر البدوية وترديدها في قصائدهم ويسترفدون

(72) الوافي في نظم القوافي.

معانيهم من معالم البادية الرحب حيث الشيح والبان والعوار وحيث الأماكن الحجازية والنجدية كالخفيف وسلع ولعلع ويكثرون من ذكر هذه الأماكن كما فعل الرضي من قبل.

وتؤدي أيضاً الطبيعة دوراً بارزاً في غزل الأندلسين فغالباً ما تختلط صورة المرأة بالطبيعة حتى يكاد الأمر يلتبس على المرء فلا يعرف أيهما المقصود، فالمرأة روضة غناء خدودها كالورد، وعيونها كالنرجس وثغرها كالأقاح ونهودها كالسفرجل، وكان هذا التماذج بين المرأة والطبيعة من أهم السمات المميزة لغزل الأندلسين[73].

وقد أشار المغري إلى براعة شعراء الأندلس في هذه الناحية فقال عنهم (إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً ومن الأمس أصراغاً ومن السفرجل نهوداً ومن قلوب اللوز وسرور التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً)، ولم يقف الشعراء عند تشبيه المراة بالطبيعة، وإنما عكسوا الصورة، فشبهوا الطبيعة بالمرأة ومزجوا بينهما مزجاً لطيفاً، فمن أمثلة هذا التداخل بين الغزل والطبيعية قول ابن بجير[74]:

وزائدة والليل مللق رواقه &&&& ومن أين الظلماء أن تكتم القمر

حررت نقاب الصوت عن وجهها &&&& فيا حسن ما أنشق الكمام هن الزهر

شعر الطبيعة

فتن شعراء الأندلس بطبيعة بلادهم فتوفدوا على وصفها وأكثروا من التغني بمناظرها الجميلة، وعبروا عن كلفهم بها في لوحات شعرية بديعة وتفننوا في هذا المجال تفنناً واسعاً حتى صار وصفهم للطبيعة من أهم الوضوعات التي طرقوها وأحرزوا قصب السبق فيها على المشارقة. وقد أشار الحجازي إلى براعة الأندلسين وتفوقهم في وصف لطبيعة فقال: "وهم –يعني الأندلسين- أشعر الناس فيما كثرة الله

([73]) المغرب، ج2، ص 171.

([74]) نفح الطيب، ج4، ص 204.

تعالى في بلادهم، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأزهار والأطيار والكؤوس لا ينازعهم أحد في هذا الشأن[75].

ويعكس شعر الطبيعة في الأندلس شدة ارتباط الأندلسيين بيئتهم وتعلقهم بمظاهر الجمال في بلادهم، فالشاعر لا يفتأ يتغنى بحب الأندلس ويفيض في وصف محاسنها، ويعبر عن التصاقه بها، ويفضلها عن سائر البلدان وكان هذا الاتجاه إلى عشق الطبيعة والالتصاق بالبيئة الأندلسية انعكاساً للشعور الوطن في نفوس الأندلسيين وتعبيراً عن نزعة أندلسية قوية تأصلت في نفوس الشعراء وظهرت في شعرهم بشكل وضح ويعبر بن سفر عن هذا الاتجاه في قوله[76]:

يفارض انـدلس ٍ تـلتذ نـعماء &&&& ولا يفارق فـيها الـقلب سـراء
انهارها فـضةٌ والـمسك تربتها &&&& والخز روضـتها، والـدر حصباء
أنهـارها فضة والمسـك تربتها &&&& والخـز روضتهـا والـدر حصباء
قد مُيزت من جهات الأرض حين &&&& بدت فريدةً وتولى مـيزها الـماءُ
دارت عليها نطاقاً أبحر خـفقت &&&&وجـداً بـها اذ تبدت وهي حسناء

وهذه الأبيات توضح شدة إعجاب الشاعر بمواطن الفتنة في بلاده، فهي مدار الأنس والتنعم، وليس في سواها منتفع بالعيش، ويفيض الشاعر في وصف محاسنها فأنهارها كالفضة وترابها كالمسك وغيرها فليس هناك أرض تعدلها ولا وطن يضاهيها فهي الرياض وكل الأرض صحراء ولا ينسى الشاعر أن يخلع الصفات الإنسانية على الأشياء فيحيل البحر والزهر والطير والأرض والأغصان إلى كائنات حية تحس وتشعر بما حولها فبعضها يذوب وجداً وبعضها يبسم طرباً.

وقد انعكست فتنة الشعراء بالطبيعة فيما نظموه من شعر، فقد ربطوا الطبيعة بكل موضوع، وجعلوها متكأ ومفترشاً للموضوعات الآخرى فإذا تغزل الشاعر جعل الطبيعة إطاراً لغزله، وإذا وصف الرياح اتكأ على الطبيعة وأفاض في وصف محاسنها حتى كاد

([75]) في الدب الأندلسي، فوزي عيسى.
([76]) نفح الطيب، ج3، ص155.

أن ينسى موضوعه الأصلي، وإذا حن إلى بلاده تزكر طبيعتها الجميلة. ولم يقف بدور بارز في بناء القصيدة بل نجد الشعراء يعبرون عن فتنتهم بالطبيعة بما فيها من مواطن الجمال والفتنة.

فوضعوا الرياض والأزهار والمنتزهات والفوارات والأنهار وغيرها من مظاهر الطبيعة ولم يتركوا منظراً من مناظر طبيعتهم الساحرة إلا وصفوه وتغنوا به في أشعارهم.

وصف المتنزهات:

تفردت الأندلس بكثرة متنزهاتها، فلم تكد مدينة من مدنها تخلو من منتزه جميل، فأشتهرت إشبيلية بمتنزهاتها الجميلة كالعروس وشنتبوس وإشتهرت غرناطة بحور مؤمل ونجد، وإزدانت قرطبة بفحص السرادق والسد والمرج والنضير وغيرها، وكانت هذه المتنزهات حافلة بألوان المتع والمسرات (فلم تكن تخلو من وجه جميل، وكاس وخليل، والحان التكلي، ومحاضرات اشهى من بلوغ الآمال وأحلى).

وكانت هذه المتنزهات منتدى الشعراء ومسارح لهوهم، ومدار أنسهم فكانوا يقضون فيها أجمل أوقاتهم، ويستمتعون بمناظرها الخلابة ويعبون فيها من كؤوس اللهو (ومعهم من الوجوه الفتانة ما يعني القرائح من المحاسن والبدائع بكل غاد ورائح)، وكثيراً ما كان الولاة يرتادون هذه المتنزهات ومعهم الشعراء فيقيمون الولائم ويتطاردون الشعر.

وقد رسم الشعراء لوحات كثيرة لهذه المتنزهات، وتغنوا بها في قصائدهم ووصفوا لحظات الأنس التي قضوها في جنباتها ما تسترقصهم الراح ويطربهم الغناء، وسحرهم ما يشاهدونه من مناظر خلابه، فمن ذلك قول ابي جعفر بن سعيد يصف مور مؤمل[77]:

عرج علـى الحـور وخيم بـه &&&& حيث الأمـاني ضافيات الجناح

(77) انتصار، القدح المعلى، ص 108.

واسبق له قبل ارتحال الندى &&&& ولا تزره دون شاد الجناح
وكن مقيماً منه حيث الصب &&&& لائتمار مسكاً من اريج البطاح
والقضب مال البعض منها على &&&& بعض كما يثني القدود ارتياح
وشق جيب الصبح نور كما &&&& شقت جيوب الطل منها الرياح
لم أحص كم غاديته ثابتاً &&&& واسترقصتني الراح عند الرواح

ويصف ابن شهاب المالقي يوماً من أيام السرور التي قضاها في (منتزه السد9 بقرطبة مع رفاقه والشمس ما زالت في خدرها[78]:

ويوم لنا بالسد لو رد عيشه&&&& بعيشه أيام الزمان رددناه
بكرنا له والشمس في خدر شرقها &&&& إلى أن أجابت إذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدوا واغتباقاً ونشوة &&&& ورجع حديث لو رقى الميت أحياه
على مثله من منزه تبتغي المنى &&&& فلله ما أحلى وأبدع مرآه
شدتنا به الأرحا وألقت نثارها &&&& علينا فأصغينا له وقبلناه
لئن بان إنا بالأنين لفقده &&&& وبالدمع في إثر الفراق حكيناه

وان أغلب أوصافهم للمتنزهات بل وللطبيعة عموماً تأتي على نحو من التزكر وإسترجاع الماضي والبكاء عليه، وذلك لأن الشاعر إما أن يكون قد نظمها بعد أن يتجاوز مرحلة الصبا إلى مرحلة الشيب فيترحم على أيام صباه، وإما أن يكون قد نظمها وه بعيد عن وطنه حيث يزداد حنينه إلى تكل الأماكن.

ونلاحظ لوحاتهم التي يرسمونها للمتنزهات تشتمل على عناصر وألوان كثيرة مستمدة من الأجزاء المحيطة بها. فهم يصفون الروض الزهر والشمس وساعة الغروب والكأس حين تدار بينهم.

نظرة إجمالية:

([78]) نفح الطيب، ج3، ص 517.

عرفنا كيف تغنى الشعراء بطبيعة بلادهم، وكيف توفروا على تلمس الجمال إلى في الأشياء المحيطة بهم، وإذا نظرنا إلى الجوانب الفنية في شعر الطبيعة فإن أول ما نلاحظه أن أوصافهم للطبيعة كانت تقوم على عدة عناصر بارزه كان من أهمها الجرى وراء الصور الطريقة والإكتار من التشبيهات وذلك لإظهار مهارة الشاعر وبراعته في رسم مناظره وكان من أثر انصرافهم إلى هذه الناحية أن اصبحوا في وصف للطبيعة لا يتجاوزون المرئى المشاهد في أغلب الأحيان وظلت المظاهر الطبيعية خارج نطاق ذات الشاعر.

الغربة والحنين:

الحنين باب قديم في الشعر العربي ولكن الأندلسيين ضوبوا فيه بسهم وافر، وصدروا فيها نظموه عن عاطفة صادق وإحساس مرهف ونفوس معذبة تجرعت مرارة الغربة، فكان حنينهم إلى الأندلس من أصدق ما قيل في هذا الباب وأبلغه على مر العصور لقد قدر على الأندلسيين أن يعيشوا محنه أغتراب مريره بعد انتشار عقد الأندلس وسقوط معظم مدنه في أيدي النصارى، فقوض كثير من الندلسيين خيامهم، ورحلوا عن وطنهم، ورتكوا معاهدهم وديارهم، وفارقوا أهلهم وأحبابهم إلى غير رجعه، وتقاذفتهم البلاد والفلوات، وذاقوا مرارة التشتت والضياع فألقى بعضهم عصا التيار في المغرب ورحل بعضهم إلى المشرق وكانت تجربة الغربة عميقة في نفسوهم فجري على لسانهم شعر كثير يصور هذه النزعة، ويصف ما كان يضطرم في نفوسهم من مشاعر التوق والحنين إلى ديارهم فمن ذلك قول ابن حربون[79]:

لله ما هـاج لمع البـارق السـاري &&&& على فؤاد غريب نـازح الدار
كان الصبا وطري إذ كنت في وطني &&&& فقد فجعت بأوطان وأوطاري
فاين تلك الربى والساكنون بها &&&& وأين فيها عشياش واسحاري
مـا للزمان: (ألا حد ينهضه؟) &&&& يغري أديمي بأنياب وأظفار

(79) زاد المسافر، ص 131.

وهذه الأبيات مجتنزأة تعبر عن أحاسيس الشاعر المغترب الذي فجع بضياع وطنه وعانى من التشتت والإغتراب، وغداً فريسه سائغه بين أنياب الزمان ونلمس فيها حدة الشعور بالغربة وتلك سمة عامة في أشارهم إذ كانوا قريبي العهد بمفارقة وطنهم.

وإذا كان ابن حربون يصور تجربة فردية في الإغتراب، فإن أبا المطرف بن عميرة يصور تجربة الأندلسيين عامة، وبعرض لأثر العربة في نفوسهم تفرقوا في البلاد واستغرت نار الغربة في أحشائهم ويتضاعف الإحساس بالغربة في نفسه حين يتذكر مواطن الجمال ومغاش الصبا في وطنه يقول أبو المطرف:

كفى حزناً أنا كأهل مَحْصبٍ &&&&بكلّ طرقٍ قد نفرنا وننْفِرُ

وأنَّ كلينا من مَشوقٍ وشائقٍ &&&&نارِ اغترابٍ في حشاه تسْعرُ

ألا ليت شعري والأماني ضلةٌ &&&& وقولي ألا يا ليت شعري تحير

هلِ النهرُ عقد للجزيرةِ مثلما &&&&عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهرُ

الرثاء:

جرى الشعراء الأندلسيون في رثائهم على سنن المشارقة، واقتفوا أثر المرثية المشرقية في معانيها وبنائها، فكانوا يستهلون مراثيهم –في الغالب- بمقدمة تتضمن النظرات التأملية في حقية الموت والحياة ثم ينتقلون إلى ذكر مآثر الميت ومكارمه ووصفه بما يليق به أو يتناسب مع مكانته الاجتماعية ثم ينفذون من خلال ذلك إلى التعزية، وتكون بالحث على الصبر والتاسي بالسلف فيما عرف من فجائع الدنيا ليتآسى بذلك ولى الهالك[80].

وقد يختمون مراثيهم بالدعاء والترحم عليه أو يطلب السقيا له على عادة الشعراء القدماء وتكثر هذه الظاهرة في رثاء الرصافي[81].

ومن أمثلة مقدمات مراثيهم قول ابن سهل يصور الصراع الدائم بين الموت والإنسان وهو صراع غير متكافئ يكون الظفر فيه دائماً في جانب الموت. بقوله[82]:

([80]) الوافي في نظم القوافي، ص 46.
([81]) ديوان الرصافي، ص 43.

يجد الردى فينـا ونحن نهـازله &&&& ونغنو ومـا تغنو فواقـاً نوازله

بقـــاء سـؤل يعـز طـلابه &&&& وريب الردى قرن يزل مصاوله

ألا إن صرف الدهر ببحر نوائب &&&& وكل الورى غدقـاه والقبر ساحله

وقد إتسعت موضوعات الرثاء، وتنوعت إتجاهاته، فهناك الرثاء الرسمي، ورثاء الأهل والأقارب ورثاء العلمان والرثاء المعنوي، ورثاء المدن الأندلسية.

زتقصد بالرثاء الرسمي، رثاء الخلفاء والأمراء ورجال الدولة. وقد أكثر الشعراء من هذا اللون ولكنهم خضعوا فيه غالباً لتوجيه الخلفاء فكان الخلفاء يكلفون الشعراء أحياناً برثاء آبائهم وأقاربهم. ولم يكن الشعراء يصدرون في نظمهم لهذا الرثاء عن عاطفة صادقة، وغنما كانوا ينظمونه أداء للواجب وإستجابة لأوامر الخلفاء، فغلب عليه الفتور والضعف. ونستطيع أن نمثل لهذا الضرب من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين زار قبر المهدي وقبر ابيه عبد المؤمن وأظهر الإيحاش إليهما، وسكب عبراته عليهما وأمر الشعراء أن يرثؤهما ويذكروا فضائلهما، فقالوا في ذلك دركان من جملة ما نظموه هذه القصيدة لبي مروان بن خالد وفيها يقول:

مجـاري عيـون المسلمين تسيل &&&& دماً ونجيعاً والدموع هموله

ألم تر أن الدهـر قد عم صـرفه &&&& ففي كل دار أنـه وعويل

أحقاً مضى المنصور واختار ربه &&&& فليس مـدى الأيام منه قفول

أقـام بـا علـي (تينمال) وإبنما &&&& إلى جانب المهدي مـن نزول

وهذه الأبيات مبتزأ حافله بمظاهر الضعف والقصور، فالمعاني مهلهلة والألفاظ ساذجه قصيرة الرشاء، ولك أن تستخرج ما شئت من مظاهر الضعف فأي جمال في تشبيه العيون بالمجاري التي تسيل؟ وما فائدة الجمع بين الفاظ تؤدي معنى واحداً دون أن تضيق شيئاً جديداً؟.

([82]) المؤلف: فوزي عيسى، ديوان ابن سهل، ص 175.

أما الداعي لقوله (الدموع هموم) بعد تشبيه الدموع بالدم والنجيع، ثم أنظر إلى التكلف في قوله (محا القمر الديني منه أقول) إن الشاعر يحاول أن يداري ضعفه بتكرار ممل ينبئ عن عجزه وقصوره. والقارئ بفقدان الصلة العاطفية بين اشلاعر وموضوعه وكأن هناك مسافة بعيدة تقوم بينها[83].

ويتصل بألهل أيضاً رثاء الزوجات وكان ذيوعه في هذه الفترة تأكيداً للمكانة البارزة التي كانت تتبوؤها المرأة في المجتمع الأندلسي، ويتميز هذا الضرب من الرثاء بأنه (لون ذاتي خالص يعتمد على ميل أصيل في نفس الشاعر إلى البوح كأنه ترجمة ذاتية قصيرة ولا يركز الشاعر في رثائه لزوجته على وصف محاسنها الحسية أو الجسدية وإنما يتحدث عن فضائلها وصفاتها المعنوية، وقد يتحدث عن حلاوة العشرة، ويفيض في وصف ما اصابه منحزن وأسى على فراقها.

ويتحدث الرندي عن معاني رثاء النساء فيرى أن يقتصر الشاعر في تأبينهن وأن يكنى عنهن جرياً على عادة الصون لهن، فيقال في المرأة أنها كانت شمساً أفلت وزهرة ذبلت ونحو ذلك[84].

وتشير الروايات إلى ذيوع رثاء النساء وإحتدامه بدرجة كبيرة في الأندلس فيذكر عبد الملك المراكشي أن ابن جبير نظم ديواناً كاملاً في رثاء زوجته (أم المجد) سماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح".

أو دعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه أم المجد المذكوره بعد وفاتها، والتوجع لها أيام حياتها تزيد ابياته على ثلاثمائة بيت سوى موشحات خمس جعلها قريباً من آخره. وقال فيها[85]:

بسبته لي سكن في الثرى &&&& وخل كريم إليهـا أتى

فلو أستطيع ركبت الهوا &&&& فذرت بها الحي والميتا

([83]) الزيل والتكملة، 19/4.

([84]) اختصار القدح المعلى، ص 123.

([85]) ديوان ابن سهل، ص 145.

ويتصل براثء الزوجات (رثاء الجواري) وإن كان يختلف عنه من بعض الوجوه، فالشاعر لا يهتم بالبكاء على الجارية بقدر اهتمامه بندب محاسنها والتغزل في جمالها والإشادة بمفاتنها الجسدية التي حرم منها، فهو بكاء على زوال الجمال، وانتهاء دولة الوصل ونستطيع أن نمثل له بقول ابي القاسم ابن طفيل المالقي في رثاء جاريته[1]:

جاريته[1]:

أسيت أنـدب في الفـراش &&&& وكأنه ما كان منها عامـر

وكأنني لم ابن منها روضه &&&& وكأنني لم أثن غضاً ناضرا

فالشاعر يبكي أيام الوصل الضائعة ويتحسر على ذلك الجسد اللمفقود أو يندب تلك المفاتن الزوايه ويطيل في ترديد المعاني الحسية حتى ليخيل أننا في مقام عزّل حسي وليس في مقام رثاء.

وهناك ضرب آخر يشغل حيزاً غير ضئيل في رثاء الأندلس ونعني به (رثاء الغلمان) وكان شيوعه وإكثار الشعراء منه إنعكاساً طبيعياً لشيوع الغزل الغلماني ويتشابه رثاء الغلمان مع الجواري في كثير من الوجوه، فالشاعر يبكي في غلامه جماله الزاوي، ويندب محاسنه التي واراها الثرى ويترجم على تلك القدود الممشوقة، والثنايا العذاب زيشير إلى أن الدهر من به عليه يتردد هذه المعاني في قول أبي عبدالله بن الجزار يرثي محبوبته (عليا) فيقول[2]:

وقالوا لي ألا ترثـي عليا &&&& وقد وارى محاسنه التواب

فقلت لهم وفي نفسي عليه &&&& بقايـا لم يغيـرها العتاب

نعيت إلى المكارم والمعالي &&&& فقيـداً مـا لغيبته غياب

فما فعل اعـتدالك والتثـني &&&& وما فعلت ثناياك العذاب

(1) الزيل والتكملة، 121/4، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين.
(2) زاد المسافر، ص 90.

ولابن سعيد ابيات يرثي جميل الصورة من أبناء العجم فيتلهف على الغصن الزاوي، ويتغزل في ألحاظه التي طالما أغوته واضلته يقول[1]:

لهفى على غصن ذوي &&&& أفقدتـه لمـا استـوى
كم ضل صاحبه بسحر &&&& اللحظ منه وكم غـوى
أنا لا أفيـق الدهـر &&&& فيه من الصبابة الجوى
حـورى حسن قد توى &&&& في جنـة وبهـا ثـوى

وللشاعر أحمد المقريني المعروف بالكساد بعض مقطعات في رثاء (موسى) الذي كان يتغزل فيه شعراء إشبيلية، ومنها قوله[2]:

قـد إلى الجنة حوريهـا &&&& وارتفع الحسن من الأرض
واصبح العشاق في مأتم &&&& بعضهم يبكـي إلى بعـض

وتوجد مقطعات أخرى في رثاء الغلمان نظمها الشعراء الإتيان بصور طريقة كمقطعه ابي القاسم الأبرسي في رثاء غريق، ومقطعه الرصافي رثاء شخص غرق في الخليج فاستخرج من الماء ودفن جوف الثرى، ومقطعاته الأخرى في رثاء غلام يدعى (يوسف) ونلتقي بلون آخر من الرثاء هو (رثاء العلماء) وكان شيوعه تأكيداً للمكانة العالية التي احتلها العلماء في المجتمع الأندلسي، واعترافاً من الشعراء بفضلهم فقد تتلمذو عليهم، ونهلوا من منابع علمهم فرثوهم بقصائد كثيرة تحدثوا فيها عن خسارة الدين والعلم بفقدهم، فذكروا أن بحار العلم قد غيضت وان أنوار السنة قد طمست وأن الدنيا أظلت بغيابهم. يعبر أبو محمد البرجي عن هذه المعاني في رثاء أستاذه أبي محمد القرطبي فيقول[3]:

خليلي هيـا سـاعداني بعبـره &&&& وقـولا لمن بالري ويحكم هبوا
نبك العلا والمجد والعلم والتقى &&&&فمأتم أحـزاني نوائحـه الصحب

(1) اختصار القدح المعلى، ص 8.
(2) نفح الطيب، ج6، ص 104.
(3) ديوان الرصافي، ص 25.

فقد سلب الدين الحنفي روحه&&&& ففي كل سر من نباهته نهب

وقد طمست أنوار سنة أحمد &&&& وقد خلت الدنيا وقد ظعن الركب

أأسلو وبحر العلم غيضت مياهه &&&& ومحى رسوم العلم يحجبه الثرب

وتكثر لدينا النماذج التي رثى بها الشعراء شيوخهم وعلماءهم فهناك قصيدة للرصافي يرثي بها الفقيه عبدالله بن أبي العباس الجزامي (المالقي وتوجد مرثية أخرى لإسماعيل بن عفير في رثاء أحد شيوخه. ولم يقف الشعراء في رثائهم عند هذه الجوانب، وإنما تجاوزها إلى آفاق أخرى فأكثروا من رثاء الدواب والحيوان وأنواع الأثاث.

وخرجو من دائرة الرثاء الحسي إلى الرثاء المعنوي، فنظموا قصائد كثيرة في رثاء الشباب وهناك لون آخر من الرثاء وجد له رواجاً في الشعر الأندلسي، ونعني بذلك (رثاء الحسن وأهل البيت) [1].

وكان إقابل الشعراء عليه تعبيراً عن حبهم وتعلقهم بالحسين وأهل بيته الأطهار وتوكيداً للمكانة التي احتلوها في قلوب الأندلسيين، كما كان وثيق الصلة بنشأة الدولة الموحدية ذاتها التي استندت في قيامها على بعض الأفكار الشيعية كالإمامة الدينية ونظرية المهدي المنتظر، وهي من هذه الناحية تضارع الدولة الفاطمية في وحدة المصدر وهو الدعوة الشيعية وإن كانت قد تميزت بإستقلالها عن الحركة الشيعية المشرقية، كما تميزت بصفتها المغربية المحلية.

رثـاء المدن الأندلسية:

كانت موقعة العقاب (سنة 609هـ) سبباً رئيساً في إنتشار عقد الأندلس فقد اضحى الطريق بعدها مفتوحاً أمام النصارى لإبتلاء تلك الاشلاء الممزقة وسرعان ما أخذت المدن الأندلسية تساقط تباعاً يف أيدي النصارى فسقطت إشبيلية وبلنسية، وقرطبة وغيرها من المدن الأندلسية، ولم يبق بيد المسلمين سوى غرناطة وبعض أعمالها.

(1) الزليل والتكملة، ج4، ص 211، ص 216.

ولم يقف الشعراء موقفاً سلبياً إزاء إضطراب الأحوال في بلادهم في تلك الحقبة فظلوا ينذرون الأندلسيين من المصير المفزع الذي ينتظرهم وأخذو يستصرخون الملوك والحكام لنجدة الأندلس ويستصرخون عزائمهم لجهاد أعداء الإسلام ولكن صرخاتهم ذهبت أدراج الرياح، فقد استع الخرق وأعضل الداء وطما بحر زاخر من الفتن والإضطرابات وأخذت المدن الأندلسية تتهاوى مدينة إثر أخرى بصورة تثير الألم والحزن في النفوس.

وقد اذلت هذه المحنة لوعة الشعراء، واستثارت قرائهم، فبكوا مدنهم بكاء حاراً، وتفجعوا على ضياعها، ووصفوا ما اصابها على أيدي الأعداء من خراب وتدمير وما حاق بأهلها من صنوف العذاب وضروب من الاستصراخ وطلب النجدة وتنقسم مراثيهم إلى ضربين، فهناك مراث في رثاء جزيرة الأندلس عامة وهناك مراث أخرى تتناول المدن الأندلسية كلا على حدة، فمن النوع الأول قول إبراهيم بن فرقد من قصيدة طويلة في رثاء الأندلس[1]:

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فطن &&&& يبكي بدمعٍ معين هتن
جزيرة أندلسٍ حسرةً &&&& لا غالب من حقود الزمن
ويندب أطلالها آسفاً &&&& ويرثى من الشعر ما قد وهن
ويبكي الأيام ويبكي اليتامى &&&&ويحكي الحمام ذوات الشجن
ويشكو إلى الله شكوى شجٍ &&&& ويدعوه في السر ثم العلن
وكانت رباطاً لأهل التقى &&&& فعادب مناطاً لأهل الوثن
وكانت معاذاً لأهل التقى &&&&فصارت ملاذاً لمن لمن يدن
وكانت شجى في حلوق العدا &&&& فأضحى لهم مالها محتجن

والشاعر في رثاءه لجزيرة الأندلس يصدر عن شعور وطني عميق، فنجد في رثائه صورة الوطن الأم، أو الجزيرة بمعناها العام، ولكننا قد لا نحس في رثائه بتلك

(1) الرثاء في الأدب الأندلسين ص 115.

العاطفة القوية التي تبدو في رثائه لمدينته، فهو يبكيها بدموع حارة، ويبدو في صورة العاشق الذي فقد حبيبته إلى غير رجعه.

وقد أذكى سقوط إشبيلية لوعة الشعراء، فرثوها رثاءً حاراً ووصفوا ما نالها من الكرب الشديد، ولاسيما اثناء حصارها حيثث تعرض أهلها لكثير من البلاء فمن القصائد التي قيلت في رثاء إشبيلية قصيدة طويلة لبي موسى ابن هارون يقول على ضياعها:

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى &&&&لم يرع فيك الردى الاّ و لا ذمما

وفي هذه القصيدة يشخص الشاعر الداء الذي أعيا دواؤه ويذكر الأسباب التي أدت إلى انفراط عقد الأندلسين وضياعه، ويعزو ذلك إلى نزعة دينية فيرى أن ما نزل بالأندلسيين من بلاء كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وما أضرموه بينهم من فتن، فأنزل الله غضبه وسخطه عليهم وزحزحهم عن هذه الجنة وهذه الفكرة تسيطر على أذهان الشعراء جميعاً وتنتظم قصائدهم وتتردد دائماً في مراثيهم، يقول بن هارون:

يا حبة زحزحتنا عن زكــارفها &&&& ذنوبنـا فلزمنـا البث والندمـا
ياسائلي عن مصاب المسلمين بها &&&& أصغ لتسمع أمراً يورث الصمما
لما افرقت الأهواء واضطـرمت &&&& نار البغــاة فقامت للردى علما
ونوزع الأمر أهلوه وقـــام به &&&& من لـم يجـد قدماً فيه ولا قدما
ثارت حفــائظ للتثليث فابتدروا &&& وايقظــوا من سنات الغفلة الهمما

ويمضي الشاعر في قصيدته فيصف هجوم النصارى على إشبيلية وإحزاقهم بها، ويصف ما اصاب الناس من زعر وهلع، ويرسم صورة حزينة لأسارى المسلمين من هول وكانهم يوم الحشر، يقول:

ويمموا حمص في جمع يضيق به*** ذرع الفضاء فسوى الوهر والأكما
فكم أسارى غدتفي القيد موثقةً *** تشكو من الذل اقداماً لها حُطمــا
وكم صريع رضيع ظـل مختطفاً ** عن أمه فهو بالأمواج قد فُطِمـا

يدعو الوليد أبـاهوهـو فـي شغل *** عن الجوابِ بدمع سال وانسجما
فكـم تـرىوالهاً فيهـم ووالهةً *** لا يرجع الطرف إن حاولته الكلما
لهفــى عليهم ومــا لهفى بمغنيه *** عمـن تبدل بعـد النعمة النقمـا
في كل حين ترىصرعــى مجدّلةً *** وآخرين أسـارى خطبـم عظما

ويصف الشاعر ما آل إليه حال إشبيلية بعد أن دخلها النصارى، وقد عفت معالمها وتغيرت محاسنها، وأنشايد الشرك على ما شاده المسلمون من مصانع وتياب ومعاهد، وعلى نحو ما بكى الشعراء وقد أشار الحميري إلى ذلك فقال: (وقد أكثر أدباؤها بكاؤها والتأسف عليها لفظاً ونثراً).

فقد صور الشعراء محنة بلنسية في ذلك الوقت، وشارك فيها الأدب بلونه الرسمي والشعبي، فظهرت مرثية شعبية بكت سقوط بلنسية في يد السيد، وقد ضاع أصلها العربي ولكنها ظلت مكتوبة في اللغة القشتالية.

وقد رثى ابن بلنسية ووصف حالها بعد أن أحرقها النصارى خروجهم منها سنة 495هـ[1].

وقد أحدث شقوط بلنسية وضياعها من المسلمين نهائياً سنة 863هـ دوياً هائلاً في نفوس أبنائها وقد اشار ابن الخطيب إلى ذلك فقال: "وكان الرزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيماً والخطب فيما أليماً" وقد سجل الشعراء أحداث المحنة التي عاصروها بأنفسهم ويعدو ابو المطرف بن عميد أحد الشعراء الذين أحدثت ماساه سقوط بلنسية في نفسوهم أثراً عميقاً فبكاها شعراً ونثراً وذرف عليها دموعاً غزيرة وقد صور بعض ما اصابه من آلام وأحزان في رسالة نثرية كتبها إلى أحد أصحابه حين حل الدزء ببلنسية وما جاء فيها قوله: "أحقاً أنه دكت الأرض ونزف المعين والبرض وصوح روض المنى وصرح الخطب وما كنى؟ ابن لن كيف فقدت رجاحة الأحلام وعقدت مناحة الإسلام، وجاء اليوم العسر وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر؟ حلم ما نرى؟ بل ما رأى ذا

(1) البيان المغربي، (ط1، نظان) ج3/ ص382.

حالم، طوفان يقال عنده لا عاصم...من ينصفنا من الزمن الظلم؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم؟"[2].

ونراه في إحدى قصائد يبكي بلنسية حاراً، ويزرف عليها الدمع مدراراً ويصور ما أصاب الناس بعد ضياع بلنسية إذ استعرت قلوبهم بنار الحزن واضطرمت أحشاؤهم بحرق الأسى، وطما بحر الأشجان، وأنحى عليهم الزمان يخطو به الفادحة يقول أبو المطرف[3]:

ما بال دمعك لا يني مدراره&&&& أم ما لقلبك لا يقر قراره
أللوعة بين الضلوع لظاعن &&&& سارت ركائبه وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه &&&& بعد الدنو وأخفقت أوطاره
أم للزمان أتى بخطب فادح &&&& من مثل حادثه خلت اعصاره
بحر من الأحزان عب عبابه &&&& وارتج ما بين الحشا زخاره
في كل قلب منه وجد عنده &&&& أسف طويل ليس تخبو ناره

ونتقل أبو المطرف بعد هذا التمهيد المؤثر نقله أخرى، فيصف أحوال بلنسية بعد أن أصبحت مثوى للكفار يضربون بكفرهم في أنحاءها، ويمزقون آثارها ويقابل بين هذه الصورة الحزينة وبين صورة بلنسية حين كانت جنة للحسن تجري من تحتها النهار، وحين كانت أوقاتها تتألف بالنعيم وأرجاؤها تتعطر بنفحات النسيم وحين كان ليلها مشرقاً بالهداية ثم نهارها مظلماً بالضلال[4]:

أما بلنسية فمثوى كافر &&&& حفت به في عقرها كفاره
زرع من المكروه حل حصاده &&&& عند الغدو غداة لج حصاره
وعزيمة للشرك جعجع بالهدى &&&& أنصارها إذ خانه أنصاره
قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا &&&& آثاره أم كيف يدرك ثاره
ما كان ذاك المصر إلا جنة &&&& للحسن تجري تحته أنهاره

([2]) عصر المرابطين والموحدين، ج2، ص 41.
([3]) ملحمة السيد 12، الرثاء في الأدب الأندلسي، ص 17.
([4]) ديوان بن خفاجه، أعمال الإعلام، ص 273.

طابت بطيب نهاره آصـــاله &&&& وتعطـرت بنسيمه أشجاره
وتألقــت أوقـاته وتفنحـت &&&& أرجـاؤه وتفتـحت أنواره
أما السرار فقد عداه وهل سوى &&& قمر السماء يزول عنه سراره
قد كان يشرق بالهداية ليــله &&&& والآن أظلم بالضلال نهاره

الشعر الديني:

كان عصر الموحدين أكثر العصور ألدبية في الأندلس إحتفاء بالشعر الديني، فقد أزدهر هذا اللون من الشعر إزدهاراً كبيراً، وغدا من أوسع الموضوعات التي تناولها الشعراء واتسعت موضوعاته وتنوعت وإزدهرت فإزدهر فن المدح النبوي، وراج شعر الزهد، وبزغ الشعر الصوفي كموضوع جديد من مضوعاته، وتفرد له شعراء كبار وقفوا شعرهم عليه أمثال بن عربي والششتري.

وكان وراء إزدهار الشعر الديني بواعث عديدة أهمها يكمن في تلك المحن السياسية والاجتماعية التي تعرضت لها الندلس في هذا العصر بالإضافة إلى الطابع الديني الذي كانت عليه دولة الموحدين والذي أسهم في نمو بعض الموضوعات الدينية كالزهد وسوف نتتبع هذه البواعث خلال حديثنا عن اتجاهات الشعر الديني وتحصر هذه الاتجاهات فيما يلي[5]:

أ- المدائح النبوية:

لم تكن المدائح النبوية فناً جديداً ولد في عصر الموحدين على نحو ما يزعم أحد الباحثين فقد ظهر هذا الفن قبل عصر الموحدين وعالجه بعض الشعراء على شاكلة عبدالملك السلمي المتوفي سنة 239هـ فقد ذكر له المقري قصيدة يمدح فيها الرسول صلهم، ويتشوق إلى زيارة قبره الكريم، ولكن الإنصاف يقتضينا أن تزكر جهود شعراء الموحدين يف نمو هذا الفن وإزدهاره بدرجة كبيرة، فقد توسعوا يف موضوعاته،

(5) تاريخ الأدب العربي لكمان، ج5، ص 122.

ويدعوا في تناوله، وانقطع للقول فيه شعراء كثيرون على شاكلة ابي الحسن الخذرجي الغرناطي "فلا يعرف له نظم في أحد من العالم إلا في مدح الرسول صلهم"[6].

ويدع في هذا الفن أيضاً عبدالرحمن بن يخلفتن القرطبي، فقد وصفه المقري بأنه صاحب الأمداح في سيد الوجود صلهم، ويبدو أنه صرف شعره إلى هذا الفن، بدليل أنه ألف ديواناً كاملاً في المدح النبوي يحتوي على قصائد عشرينيات في مدح النبي صلهم، كما ألف ديوانين آخرين في الموضوع نفسه أحدهما بعنوان (ديوان الوسائل المتقبلة يف مدح النبي) يرج تاريخه تأليفه إلى سنة 604هـ والديوان الآخر عبارة عن قصائد في التشوق.

وقد برز من شعراء المدح النبوي أيضاً بن الجنان الشاطبي فذكر المقري أن كلامه في النبويات نظماً ونثراً - جليل وأثنى عليه بن الخطيب فقال "وكان له في مدح النبي صلهم بدائع ونظم في المواعظ للمذكرين كثيراً" وكان ابن خيازه أحد الشعراء المبرزين يف المدح النبوي، وكان له تجربة وجهته إلى هذا الفن وجعلته يقف شعره عليه فيذكر المقري أنه كان جانحاً إلى امتداح ملوك عصره فكان يأتي في ذلك بما لم يسمع مثله، ولكن سئم من التزلف إلى الملوك، فإنصرف عن مدحهم وأقسم ألا يخص أحداً بمدحه إلا رسول الله صلهم وقد كفر عن مدائحه للملوك بقصيدة طويلة قال فيها[7].

سهوت بمدح الخلق دهري فهذه &&&& سجودي لجبري كل ما قلت ساهيا

فلاح مدح ألا للذي بمديحه &&&& تيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا

وقد سلك الشعراء دروباً متنوعه في مدائحهم واستخدموا أساليب مختلفة في نظم هذه المدائح، فبعضهم يبني مدحته كلها على قوله (صلى "الإله على النبي الهادي"، أو قوله: "صلوا على خير البرية" فتتكرر هذه العبارة يف مطلع كل بيت صيغ الصلاة على النبي على نحو ما يبدو في قول ابن الجنان في إحدى مخمساته"[8]:

([6]) نفح الطيب، ج4، ص 468.
([7]) أزهار الرياض، ج2، ص 384.
([8]) نفح الطيب، ج7، ص 498.

يا سامعـي أخبـاره ومفاخره

ومطالعـي آثــاره ومآثـره

ومؤهلي وافر الثـوب ووافره

إن شئتم فوزاً بـزاك عظيما

صلـوا عليه وسلمـو تسليما

وقد يبدأ الشاعر مدحته بتوجيه الخطاب مباشرة إلى النبي الكريم ويلتمس منه الشفاعة وقد يتوجه بحديثه إلى الله سبحانه وتعالى ويسأله الصلاة والتسليم على رسوله الكريم ويخلص من ذلك إلى مدح النبي على نحو ما يبدو في قول ابن الجنان[9]:

يا من تقدس عن أن &&&& يحيط وصـف بذاتـه

صلى على من تبدى &&&& نور الهدى من سماته

محمـد خيــر هاد&&&& بحملــه وأنـاتـه

وينهج حازم القرطاجي نهجاً آخر في مدائحه النبوية، فيلتفت إلى المعلقات والقصائد المشهورة، فيأخذها ويصرف معناها إلى المدح النبوي، فمن ذلك التفاته إلى معلقة أمرئ القيس، فنراه يأخذ شطراً من كل بيتاً وضلع إلأى جانبه شطراً آخر من عنده، ويصرف المعنى كله إلى المدح النبوي كما يبدو في قوله[10]:

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل &&&& قفا بنك من ذكرى حبيب ومنزل

وفي طيبة فأنزل ولا تغش منـزلاً&&&& بسقط اللوى بين الدخول فحـول

وزر روضة قد طالما طاب نشرها &&&& لمــا نستها من جنوب وشمأل

وقد يستخدم بعض الشعراء في مدائحهم الأسلوب القصصي، ونلحظ هذه الظاهرة في بعض مدائح ابن الجنان وابن الصباغ وابن خبازه، وللأخيره قصيدة طويلة تنحو هذا المنحى يقول في مطلعها[11]:

حقيق علينا أن نجيب المعاليا &&&& لنفنى في مدح الحبيب المعانيا

([9]) نفح الطيب، ج7، ص 440.

([10]) نفح الطيب، ج7، ص 506.

([11]) نفح الطيب، ج7، ص 501.

وهذا الضرب من المدائح النبوية الذي يعتمد على العنصر القصصي قد هيأ لظهور قصيدة المولد النبوي وقصائد السير في هذا العصر.

ب- شعر الزهد:

نشطت حركة لزهد في هذا العصر نشاطاً ملحوظاً، ومن يطالع كتب التراجم يهوله تلك الكثرة من اسماء الزهاد وأخبارهم. وقد الفت بعض الكتب التي تتناول أخبارهم مثل كتاب الزهاد والعباد لأبي بكر الغافقي. وكانت هذه الموجه من الزهد رد فعل لموجه المجون التي انغمس فيها كثير من الأندلسيين، كما أن للمحن السياسية وكثيرة الحروب والفتن وانحسار الإسلام عن تلك البقعة الغالية أثر في تقوية نزعة الزهد في نفوس الناس.

وكان للموحدين أثر بعيد في توقية موجة الزهد التي احتدمت في هذا العصر فقد كان بن تومرت مؤسس دولتهم زاهداً وله شعر في الزهد. وكان ابو عمران متقدماً في قرض الشعر، وقد نظم ديواناً في الزهد والحكم والتخويف والنصائح وكان في وقته مدوناً مشهوراً بادي الناس، وفي شعره في الزهد قوله[12]:

سلبخه وحصير &&&& لبيت مثلي كثير

وفيه شكى لربي &&&& خبز وماء نمير

وفوق جسمي ثوب &&&& من الهواء سستير

إن قلت إني مقل &&&& إني إذاً لكفور

قد رثا عينا بعيشي &&&& فدون حالي الأمير

وتحمل بعض قصائد روح الوعظ والتعزير والتذكير بما ينتظر المرء من مصير، والدعوة إلى ترويض النفس ومحاسبتها من مثل قوله[13]:

لا تبك ثوبك إن أبليت جدته &&&& وابك الذي أبلت الأيام من بدنك

ولا تكونن مختالا بجدته &&&&فربما كان هذا الثوب من كفنك

([12]) أبو ساحق الأكبيري شاهد الزهد الأندلسي وفيان الأعيان، ج5، ص 45. والمعجب، ص 354.

([13]) المرجع السابق، ص 343.

ولا تعفه إذا أبصرته دنسا &&&& فإنما اكتسب الأوساخ من درنك

وتدور معاني الزهد حول الدعوة إلى إزدراء الدنيا والإنصراف عنها ويكثر الشعراء من ذر الموت وتصويره في صور شتى، ويفيضون في تصوير أهوال الجحيم وعذاب الآكخره.

ج- الشعر الصوفي:

كان عصر الموحدين هو عصر المحنة السياسية الكبرى في الأندلس، فقد كانت هزيمة العقاب بآمال لأندلسيين، وأخذت المدن الأندلسية تتهاوى في قبضة النصارى بعد هذه المعركة. وكان ينتاب الأندلسيين حسرة مريرة على وطنهم الذي أخذ يتداعى شيئاً فشيئاً وتركت هذه الأحداث أثاراً عميقة في نفوسهم فوجد بعضهم في حياة اللهو والموسيقى والغناء عذاء وتسلية عن حياتهم القلقة. ومن ذلك قول الششتري يصف حبه لغيداء اشمت جده وسلبت روحه، اصابت علقه بالخبال، وغيبه حبها عن الوجود بقول[14]:

قد كساني لباس سقم و ذلة &&&& حب غيداء بالجمال مدله

سلبتني و غيبتني عني &&&&و غدا القلب من هواها مولّه

سفكت في الهوى دمي ثم قالت &&& يا طفيلي عشقنا أنت أبله

وقد أكثر الشعراء من التغني بجمال المحبوب، ووصفوا انجذابهم إلى هذا الجمال وهيامهم به، فمن ذلك قول ابي الحسن الدعيني[15]:

جمال حبيبي للغرام دعاني &&&& فيا عاذلي قلبي عليه دعاني

بصرت بما لم تبصرا أنتما به &&&& بعين فؤادي لا بعين عياني

وأدركت ما لم تدركا من بهائه &&&& فوجدي به غير الذي تجدان

المبحث الثالث

النثر في الأنـــدلس

النثر الفني:

([14]) ديوان الششتري، الذليل والتكملة، ص 57.

([15]) المرجع السابق، ص 46.

النثر الفني مظهر من مظاهر الحضارة والرقي العقلي وأثر من آثار العناية باللغة يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلاسة الأسلوب حتى يجد القارئ من اللذه مثلما يجده من يستمع إلى الشعر الجيد، فهو من مظاهر الجمال وقد اقتصر في القرن الأول على دخول العرب الأندلس على ما تقصيه الأحوال من الخطب والرسائل والرسائل الإدارية والسياسية لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة في أرواح الجند ثم اتسع المجال للنثر الفني فشمل الموضوعات المعروفة لدى المشارقة وابتكر الأندلسيون ما لم يكن شائعاً هناك فشملت رسائلهم مدح الخليفة والتهنئة، والشوق والعتاب والوصف كوصف المحافل والمجالس والرياض والأزهار والأنهار والكواكب والتعازي والحكايات والقصص والمناظرات الخيالية بين بلدان الأندلس أو بين السيف والقلم[16].

تأثر النثر في الأندلس بالنثر في المشرق العربي ولذلك نلاحظ أن أي تطور في النثر المشرقي أو تجديد فيه لابد أن تنعكس آثاره على أهل الأندلس، فإذا كنا قد تعرفنا عن دراستنا للنثر العباسي على طريقة الجاحظ وابن العميد وبديع الزمان، فإننا سنجد أصداء ذلك في الأندلس.

وقد امتاز كثير من كتاب الأندلس بجمعهم بين الشعر والنثر (ابن زيدون)، لذا الجمع بين الفنين أثره في صيغ النثر بالصيغة الشعرية، مما أعطاه جمالاً ورقة وحسن اختيار للألفاظ والأساليب.

ووكانت لفظة الكاتب في الأندلس تطلق على طيفتين من الناس كتاب الرسائل وكتاب الزمام أما كاتب الرسائل فله الحظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة الخاصة يخصه من يعظمه في رسالة وهكذا فإن من يلحقهم أسم كاتب في ها العصر كثيرون جداً ولكن الكتابة الإنشائية الفتية المستقلة عند واضحة إلا في أواخر هذا العصر لأن صورة الكتابة الديوانية عليت عليها وتدل الكتابة الرسمية في هذه المرحلة على تحصيل الإيجاز والقصد في التعبير وايثار المعنى واصحاب

(16) قصة الخطابه محمد عبدالمنعم خفاجه، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ص 254.

التوقيعات المقتطبة هم المشهود لفهم بالبلاغة في هذا الشأن وقد اقتضت مثل هذه المناسبات بالإيجاز والإيماء والقصد في القول والحدة في الخطاب وأكبر ما يميز في هذه المرحلة تميز أصولها وطرائقها وأساليبها وهذا راجع إلى قوة حركة النقد وفي هذه المرحلة يستقبل النثر الفني في بعض أحواله عن الكتابة الديوانية.

أنـواع النثر الأندلس:

النثر الفني الندلس أنواع كثيرة أهمها:

أولاً: نثر الدواوين:

وما هو يصدر عن الملوك والأمراء في تصريف شئون الدولة وأعمالها او ما يصدر عن الكاتب رإرشادهم. وتوجيههم، وكان إذا علت لديهم الكاتب وناب الأمير أو الحليفة لقب بالحاجب وهو أشرف الألقاب في الدولة وكان اسم الوزير يطلق على كل من يجالس الملوك أو يختص بهم أما الذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة فكان يلقب (بذي الوزارتين) ويكون غالباً من أهل الأدب.

ثانياً: نثر الرسائل الخلقية أو الإجتماعية:

ويتناول البحث في شئون الناس وأحوالهم، وما يجب أن يكون عليه من خلق فاصل وعدل ومحبة وسلام.

ثالثاً: نثر الرسائل الأدبية:

هو ما يصدر من الكتاب والأدباء، ومتناولاً أغراض الشعر من مدح وعتاب وتهنئة ورثاء ووصف ونحوها، ومصدراً عواطف الناس وأهواهم في حياتهم الخاصة والعامة.

رابعاً: النثر الخيالي:

ويقصد به الترفيه عن النفس بما يلذ قراءته من القصص الموضوعية. وهو ما نسميه الآن النثر الدوائي وهو أنواع فمنه ما يتناول شرح الحقائق في أسلوب قصصي خيالي. كرسالة ابن الشهيد المسماه التوابع، الزوابع تناول فيها جمهرة من الأدباء،

فعرض صوراً من شعرهم ونقدها، ومنه يتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم والمناظرة بين بلدان الأندلس، ومنها ما يتناول الموضوعات العامة الإجتماعية والفلسفية على شكل قصص.

خامساً: النثر العلمي:

وإن حان الأدباء لا يعدونه من النثر الفني، ولكن الأندلسيين أما أبدعوا في التفنين في أساليبه وتمقوا عبارته صح ان يعد عندهم من النثر الفني وكتب قلائد العقباتن ومطمح الأنفسي ونفح الطيب تؤيد ذلك[17].

أسلوب النثر:

كان الأندلسيون يقتفون أثر المشارقة يف أساليب الكتابة لأنهم رأوهم ائمتهم في صناعة الكلام، وكان النثر أول عهد العرب بالأندلس سهلاً جذراً لا تكلف فيه ولأثر للصناعة اللفظية إلا ما يجئ منها عفواً ولما ظهر ابن العميد وحليته في الشرق أخذ الأندلسيون طريقهم يف الكتابة فتغلب نثرهم الصناعة اللفظية، والتزم فيه السجع حتى أصبح من خواص النثر الندلسي وملأوء بالتشبيهات والاستعارة والكناية واشياء من المحسنات البديعية.

ميزات النثر الفني:

امتازت الكتابة الأندلسية بمميزات اقتضتها طبيعة وأحوال أهلها وما حل بدولها أخيراً منها:

1. كثرة الوصف لمشاهد الكون مما قد يخرج الكاتب عن الغرض الذي يكتب فيه.
2. غلبة الخحيال اشلعري على معاينهم.
3. كثرة المناظرات والمحاروات الخيالية بين السيف والقلم والربيع والخريف والمدن والأنهار والأزهار.
4. التزام الأطناب في الرسائل السلطانية.

(17) قصة الأدب الأندلسي للكاتب محمد عبد المنعم خفاجه، منشورات مكتبة بيروت، ص 254.

5. قلة الفلو والمبالغة في تعظيم الملوك والإعراء كما كان المشارقة يفعلون.

وقد ظل النثر الندلسي محافظاً على عربيته وفصاحته لم تقصده العجمة إلأى حدا المسلمين عنها.

صور من كتابات النثر في هذا العصر:

وصف عبدالرحمن الداخل فراره من بطش العباسين فقال: "نظرت فإذا بالرايات السود منحطة، وأخٍ لي حدث السن يقول لي: "النجاة يا أخي، فهذه ريات المسودة فضربت بيدي إلأى دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي أخي معي وعلمت أخواتي بتوجيه. ومكان مقتصدي وأمرتهن أن يلحقني ومولاتي بدر معهن، وخرجت فكنت في موضع ناء عن القرية فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فاحاطت بالدار فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات فأمرته أن يبتاع لي دولاب ما يصلح لسفري فدل على عبد سوى له فمارا عنا إلا جلبه الخيل بحفزنا فاشتددنا في الهرب مسقناها إلى الفرات فرمينا فيع بانفسنا، والخيل تنادينا من الشط"[18].

وروى أن الداخل كان في بعض مجالسه فمثل من بين من قنسرين يستجديه فقال له: "ايا ابن الخلائق الراشدين والسادة الأكرمه إليك فردت، وبك عزت من زمن ظلوم ودهر غشوم قلل المال وأكثر العيال وشعت الحال فصير إلى نداك المال وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرقد".

فأجابه عبدالرحمن مسرعاً: "قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك وأمرنا بعونك على دهرك على كرهنا لسوء مقالك فلا تعودن ولاسواك لمثله من أرافه ماء وجهك بتصرف المسالة ولا لحاح في الطلبة، وإذ الم بك خطب أو حزيك أمر فأرفعه إلي في رقعة ولا تعدوك كيما تستر غليب خلتك وتكف سماته العدو عنك ان رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه بإخلاص الدعاء وصدق النية وكتب إلى بدر مولاه".

([18]) قصة الأدب الأندلسي للكاتب محمد عبد المنعم خفاجه، منشورات مكتبة بيروت، ص 257.

وقفت على رقعتك المنبئة على جهلك وسوء خطلك وما فيها إساءة أدبك ولئيم معتقدك والعجب أنك ما اردت أن ابتي لنفسك عندنا مقاماً بل أتيت بما يهدم كل مقام مشيد فما تمن به مما قد أضجر الاسماع تكراره وفرحت النفوس إعادته (استخرنا الله من أجله على أن أمرنا) استئصال مالك وزدنا في هجرك وإبعادك وهفتا جناح أعوانك فعل ذلك بقمع عنك ويدوعك حتى يبلغ بل ما تريد إن شاء الله فنحن أولى بتأديبك من تخلى أحد إذ شرك مكتوب في مثالبنا وخيرك معدود في مناقبنا".

وبعث إليه بدر برسالة فكتب يجيبه: "إن لك من الذنوب المتداومة ما لو سلب معه روحك لكان بعض ما استوجبته، لا سبيل إلى رد مالك فإن تركك بمعزل وفي بلهنيه الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي عن شغل السلطان اشبه بالنعمة منه بالنغمة واياس من ذلك فغن الياس مريح".

وكتب إليه بدر يستقطه فكان جوابه عليه أن أمر بنصبه عن قرطبة إلى اقصى الثقر وكتب له في ظهر الرقعة لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت العين طلعتك وزدن ثقل عن السمع كلامك ثم زدن أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثقر فبالله الا ما قصرت ولا يبلغ بك زائد المعنى أن تفيض بك معي الدنيا وراينك تشكو بعلان ويتألم من فلان وما وما تفوه عليك وما لك عدو أكبر من شأنك فما طاح بك غيرة فاقطعه قبل أن يقطعك"[19].

يديه رحل من جند قنسرين يستجديه فقال له: "ايا ابن الخلائق الراشدين والسادة الأكرمه إليك فردت، وبك عزت من زمن ظلوم ودهر غشوم قلل المال وأكثر العيال وشعت الحال فصير إلى نداك المال وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرقد.

فأجابه عبدالرحمن مسرعاً: "قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك وأمرنا بعونك على دهرك على كرهنا لسوء مقالك فلا تعودن ولاسواك لمثله من أرافه ماء وجهك بتصرف المسالة ولا لحاح في الطلبة، وإذ الم بك خطب أو حزيك أمر فأرفعه إلي في

([19]) المرجع السابق، ص 259.

رقعة ولا تعدوك كيما تستر غليب خلتك وتكف سماته العدو عنك ان رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه بإخلاص الدعاء وصدق النية".

فنون النثر الأندلسي:

وأهمهـا:

1/ الخطـابة:

عندما دخل العرب الأندلس فاتحين كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة، ثم غن عصر الولادة كان عصر اضطراب وحروب وصراع بين العصبيات العربية، فكان ذلك داعياً إلى اودهار الخطابة في الأندلس في ذلك العصر فكانت الوسيلة الفعالة في إشعال الحروب وـابيد العصبية القبلية عندما تكون الحروب والنزاعات بينهم، وكانت الوسيلة فعالة في الحث على الجهاد وقتال الكفار عندما تكون الحروب ضد نصار الأندلس.

وبدأ بالخطابة حيث عرفها بأنها: "حديث منطوق تمييزاً ً لها عن الحديث المكتوب".

ثم كعادته في كتابه يذكر تطور الخطابة من قبل الجاهلية ومن العصر الأموي، بعدها يذكر الخطابة في العصر الأندلسي ويرى أنه كان من المتوقع أن تزدهر غزدهاراً عظيماً نظراً لما مرت به من تمزق وشتات لكن ما حصل كان العكس، وما وصل من الخطب كان قليلاً جداً، فبعضهم علل بأن الخطابة كانت ذاهية في بداية الدولة الأندلسية حتى عصر الطوائف وضعفت بعدها، وقلة ما وصلنا من الخطب قد يكون راجعاً لتعذر التدوين، وقد تكون ابيدت مع ما أباده الأسبان عندما استولوا على الأندلس.

ثم ذكر عدداً من الخطب منها قول عبدالرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهدي "هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه: إما ذل الدهر وإما عز الدهر، فاصبوا ساعة فيما لا تشتهون، نربحوا بقية أعماركم فيما تشتهون"[20].

2/ الرسـائل:

([20]) كتاب الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي عيسى، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، دار المعارف، ص 438.

بعدها يتطرق الكاتب إلى الرسائل وأنها تقسم إلى "ديوانية وأخوانية". ويقال للدوانية "السلطانية" وهي التي تصدر من ديوان الخليفة ويوجهها إلى الولاة والعمال وقادة الجيوش واحياناً إلى الأعداء (ترهيباً). ومثال ذلك رسالة لأبي حفص بن برد الصغر على لسان من كان يكتب له من العامرين، موجهة ليقوم طلبوا الأمان من مولاه: "أما بعد فإنكم سألتم الأمان أو أن تلمطت السيوف إليكم، وحامت المنايا عليكم، وهمت حظائر الخزلان أن تفرج لنا عنكم، وأيدي العصيان أن تتحفنا بكم....".

ولو كلنا لكم بصاعكم ولم ندع فيكم ذمة اصعناكم لضاق عليكم ملبس الغفران، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان، ولكنا علمنا أن لهو بكم الخلوق وذوي استانكم المعاصين لكم ممن يهاب وسم الخلعان ويخاف سطو السلطان".

ويشير إلى اسلوب الرسائل الديوانية لا يسير على وتيرة واحدة ولا يلتزم نمطاً واحداً بل يتفاوت الأغراض وما تقتضيه الأحوال ثم يتطرق الكاتب إلى النوع الآخر وهي الرسائل الإخوانية وهي سبعة عشر نوعاً، النهاني، والتعازي، والشفاعات، والتشوق، والاعتذار، والشكوى، واستماحة الحوائج، والشكر، والعتاب، واستماحة الحوائج، والشكر والعتاب، والسؤال عن حال المريض وألخبار، والمداعبة، ويندرج تحت هذه الأنواع أنواع أخره كثيرة ومثال ذلك رسالة الوزير لسان الدين الخطيب بعثها إلى صديقه ابن خلدون واستهلها بأبيات ثم هذه الرسالة:

"أما الشوق فحدث ولا حرج والبحر، أما الصبر فسل به ايه درج بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن لشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأدرج وأني بالصبر على إيد الدبر بل الضرب والهبر ومطاولة اليوم والشهر حتى حكم القهر وهل للعين أن تسلو سلو المقصر عن أنسابها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الدائي والمشاهد وفي الجسد مضغه اصلح إذا صلحت فكيف حال أن رحلت عنه ونزحت وإذا

كان الفراق هو الحمام الأول فعلام المعول، اعيث مراوضه الفراق على الراق وكادت نوعه الاشتياق أن تقضي إلى السياق ومن ضمن الرسائل الرسالة الأدبية[21].

كانت النثر في الأندلس يقتضي أثر قريبة في المشرق ونسج على منواله ويسير على تهجه ويجري في مضماره وكان في الندلس كما كان في المشرق عدد كبير من الكتاب المجيدين الذين دق أسلوبهم وراق نهجهم وأمسكوا من الكتابة بخير زمام وملكوا منها ناحية الاتقان وضروب البيان غير أن الأمر الذي يدعوا إلى الدهشة هو أن كبار الأندلس هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين من أمثال ابن زيدون وابن شهيد وابن جزم وأبي حفص بن برد وابن دراج القسطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم.

على أن هناك ظاهرة وألمر كذلك تستوقف النظر حقاً فإن الأدباء الذين ذكرناهم من نجوم الشعر في ألندلس حينما يكتبون يحوزون اعجابنا ويثيرون دهشتنا بجمعهم بين جوهري الشعر والنثر والإجادة، إذ ان اساتذتهم المشارقة عن الكتاب كانوا على إجادتهم للكتابة تصمحل أنغامهم وثقل موسيقاهم حين يكتبون الشعر ونتسطيع أن نذكر منهم أبا الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبابكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وفي العهود المتأخرة نسبياً للقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني فأولئك جميعاً كان شعرهم في الجودة دون نثرهم ولذلك نشأ في المشرق ما يسمى شعر الكتاب.

أما في الأندلس فإن رسائل اين برد وابن زيدون وابن شهيد وابن دراج. ففي نطاق الرسائل الديوانية على سبيل المثالث ماكتبه أبو حفص بن برد المتوفي سنة 414هـ الذي كان وزيراً أبان الفتنة إلى هزيل بن وزين وكان قد حاول أن ينفرد بحكم بعض الجهات محاوراً إعادة إلى نطاق الطاقة.

أما بعد – اتاك الله رشدك وأجزل من توفيقه قسطك فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم وأنساهم بمهل غير مهل بل ليحصى آثارهم، وليبلوا أخبارهم وجعلهم أصنافاً متباين وأطواراً مختلفين فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية وبين الفريقين

([21]) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المغزي السلماني، المحقق يوسف الرفاعي، دار النشر، طبعة ط1، ص 568.

أقوام خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن ينوب عليهم ولو شاء لكان الناس أمة واحدة ولا يزالوا مختلفين إن ابن برد يلجأ إلى الترغيب والمصالحة لإستعادة الخارج على السلطان إنه يقلد أبا الفضل بن العميد حينما بعث برسالة إلى خارج السلطة عمر فيها إلى الترغيب والتهديد معاً والفرق بين الرسالتين هو الفرق بين الأستاذ والتلميذ[22].

ويقول في نهايتها مرغباً مهدداً: "وإنت في طاعة سالفة، واستقامة موروثة وبين إنابة منتظرة، دنو به مستقلة، فإحدى الحالتين لقط الذنوب الكبيرة، ويغطي على العيوب الكثيرة فالان عصمك الله واللبيب رضى، والمركب وطى، وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة إباك ومصارع الناكئب وخدارموارط العاذرين". وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل الديوانية لم تتطور مع مرور الوقت كمثيلتها في الشرق فقد استمرت على حالها موغلة في القياس والسجع كأسلوب ظل منيعاً في الكتابة.

ومن الرسائل الديوانية المشهورة رسال لسان الدين بن الخطيب إلى السلطان المنصور بن السلطان الناصر محمد بن قلادون والتي شرح فيها حال بلاد ألندلس وما يعتريها من أخطار من في الفترة كانت أعمدة الدولة الإسلامية تنهار فيها عموداً إثر آخر وتسقط صفاً بعد حصت وقد ورد فيها كثير من الإشراف في السجع وإقال في الصفة.

ولا تختلف الرسائل الإخوانية والتي تمكن اعتبارها بمثابة راسائل خاصة عن الرسائل الديوانية في طبيعتها وأسلوبها ومن الأمثلة عليها رسالتي بن زيدون الهزلية والجدية وقد كتب الأولى على لسان ممتوبته ولادة إلى غريمة في حبها الوزير أحمد بن عبدوش والثانية كنيها أثناء وجودها في السجن يستعطف أبا الحزق جهور صاحب قرطبة ويسأله العهفة ويرجو منه أن يطلق سراحه وكل الرسالتين كتب الرسالة بأسلوب مسجوع وعبارات منمقه وكانت غنية[23].

ثالثاً: المناظرات:

([22]) فصول في الأدب الأندلسي: حكمة علي الؤوس، في في القرنين الثاني والثالث الهجري، مكتبة دار النشر، القاهرة، ص 128.
([23]) المرجع السابق، ص 130.

يبد الكاتب بالقول بأن االمناظرات هو أن يهدف الكاتب من وراءه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية في الموضوع الذي يكتب فيه.

تنقسم المناظرات إلى قسمين: خيالية، ومناظرات واقعية لا علاقة لها بالخيال. ومن المناظرات الخيالية ما جاء على هيئة الرسالة مثل رسائل بن برد الأولى في موجهة إلى الموفق أبي الحسين مجاهد العامري، وفيها يعقد مناظرة بين السيف والعلم والثانية موجهة إلى ابن الحزم بين جمهور وقتها يقدم الورق ويفضله على سائر الرياحين.

وكان يقصد من هذه المناظرة إن يشتكي من التفرقة فرمز للسيف لرجال الحسين وبالقلم لأرباب الفكر ويطلب منهم الاتحاد.

ومن المناظرات غير الخيالية ما يشير إلأى الفخر بمناقب الأندلس والمناظرة تكون بين مدن الأندلس ومن ذلك رسالة بن بحر بن إدريس إلى الأمير عبدالرحمن بن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن بن علي والتي جعلها لمناظرة بين مدن الأندلس تقول كل مدينة فيها أنا ألا حق بالأمس وأولى مثال: "تميزت (حمص) غيظاً وكات تغيظ غيظاً وقال: مالهم يزيدون وينقصون ويطعمون ويحرصون إن يتبعون ألا الظن وإن هم لا يخرصون، الهم السهم الأسد والساعد الأشد والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد، أنا مصر الأندلس والنيل نهري، محسبي أن أفيفي في المشرق وأن لحجبهم باشراف اللبوس، فأي ازاء اشتملتموه كشنبتوي إلى ما شئت من ابنية رحاب وروض يستغنى بنفرته غن السجاب قد ملات زهراتي وهاداً وانجاداً، وتوشح سبف نهري بحدائقي نجاداً فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق، الأن حصص الحق[24].

فظرتها قرطبة شرزاً وقالت: لقد كثرت مواً ونورث في الصغر الأصم برزاً كلام العدى ضرب من الهزيان وابن للايضاح وللبيان متى استحال المستقيح حستحسنا ومزاودع اجفان المهجور وسنا أن اوعيتم سبقاً فما عند الله خير وابقى.

رابعاً: المقامات الأندلسية:

(24) فصول في الأدب الأندلس، د. حكمة علي الؤوس، في القرن الثاني والثالث الهجري، مكتبة التجارني بالقاهرة، ص 58.

في نهاية الكتاب يتطرق الكتاب للمقامات الندلسية ويعرفها لغة بأنها المجلس والسادة ومقامات الناس مجالسهم وسميت الاحدوثة من الكلام مقامة، كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها.

أشهر من عرف بمقامتها من المشرق هو (بديع الزمان الهمزاني) أما الأندلسون فقد غرقط في المقامة عن طريق من رحلوا منهم إلى الشرق طلباً للعلم، من أشهر كتب المقامات هو لسان الدين بن الخطيب مثال على المقامات: "مقامة ابي الحفص الشهيد".

وصلت رحلته واستقامة بدوي له "ثم قام من مكانه ودعا بعصيانه وأغراهم بديك له هرم ليز بحثم في طاعة الكرم، وإدرك الديك ما يبيت له من السهر فوقف خطيباً يذكر أهل البيت بافضاله عليهم قائلاً "أيها السادة الملوك، فيكم الشاب متع بالشباب، والاثنين نور هيشه مع الكواعب والأتراب، وقد صحبهم مدة، وسحت الله تعالى على رؤوسكم مراراً وعدة، وأوفظكم بالانسحار، وأؤذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لرجاجكم سقاداً، وربيت لكم من الفراريج إعداداً، فالآن حيث بلى في خدمتكم تاحب انعى إلى دجاجي وتنص الشفرة على أدراجب..." [25].

القصة الفلسفية:

حي بن يقطان لإبن طفيل، حي بن يقطان كغيرها من القصص التعلمية الفلسفية ترتكز على أسلوب منطقي وتظهر فيها شخصية المؤلف ظهوراً مباشراً بكل جوانبه المعرفية.

أما الهدف من كتابة تلك القصة فهو شرح بعض المسائل الفلسفية في أسلوب قصص كالكلام في نظرية المعرفة والفلسفة والطبيعيات وغير ذلك من المسائل ويقول المؤلف في مقدمة كتابه.

إن ما شاع من آراء فاسدة نيفت فيها متفلسفة العصر وصرحت بها حتى إنتشرت في البلدان رغم صدرها وخشينا على الضعفاء الذين أطرحوا تقاليد الأنبياء صلوات الله

([25]) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن باسم، تاريخ النشر 1898م، تحقيق سالم مصطفى، دار الكتب العلمية، ط1، ص 438.

وسلامة عليهم وأرادو تقليد السفهاء أن يظنوا تلك الآراء هي المعتمون بها على غير أهلها فزيد بذلك حبهم فيها وولوعهم بها فراينا إن نظم إليهم بطرق من سر الأسرار لتجتذبهم إلى جانب التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق.

من هنا يتضح لنا أن ابن الطفيل ألف هذه القصة للمرد على غلاة الفلاسفة وإصلاح العقائد الفاسدة ويحدد ابن الطفيل المحيط المكاني للقصة فإذا به جزيرة من جزائر الهند تحت خط الإستواء أما الحدث فهو على نحو ما قصة[26].

إنه كان بازاء تلك الجزيرة العظيمة متسفة الاكتاف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهرة فضلها من الزواج إذ لم يجد لها كفئاً وكان له قرين يسمى (يقطان)، فتزوجها سراً على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ثم إنها حملت منه ووضعت طفلاً فلما خافت أن يفتضح أمرها ونكشف سرها وضعته يف تابوت أحكمت زمه (إغلاقه) بعد أن روته من الرضاعة خرجت به أول الليل في جملة من خدمها وثقالها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابه به وخوفاً عليه، ثم إنها ودعته وقالت: اللهم إنك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئاً مذكوراً أورزقته في ظلمات الأحشاء، وتكلفت به حتى ثم وإستوى وأنا الملك ايغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا أرحم الراحمين ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جرى الماء بقوة المد.

القصة الأدبية:

أولاً: التوابع والزوابع-لابن شهيد:

هذه قصة أدبية كتبها مؤلفها فيما يعتقد الدارسون بين عام 416هـ و420÷ ويقال ان كاتبها كان متأثراً فيها بالمثامة الابليسية لبديع الزمان الهمزاني ويقال إن أبا العلاء

(26) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، الكاتب محمد رضوان، تاريخ النشر 1965م، دار الأنوار، بيروت، ص 568.

المعري قد تأثر بها كتابه المشهور رسالة الغفران ويحتدم الجزل في هذه المسالة، وهو جدل لا طائل تحته وحسبنا أن نشير إلى أن هذا النص مُتخيل وأن كاتبه عمد في بداية كابه إلى التهيئة للحديث عن القصة قبل الدخول في تفاصيلها وأحداثها، فهو يحدثنا عن أنه كان له صديق مقرب إليه ثم لحقه ملل منه بعد طول معلق ووذومات هذا الخليل أثناء جفائه له وملا له منه فحزن عليه أشد الحزن ورثاه يقوله:

تولى الحمام بظبي الجذور وفاز الردى بالغزال الفريد إلى أن ينتهي معتذراً عن الملل فيقول: وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد جري في ضميري. وقد ارتج عليه القول (لم يستطع المتابعة) فإذا بفارس على باب المجلس على فرس أذهم. قد اتكا على رمحه وضاح به – كما يقول اعجزت يا فتى الأندلس فقلت: لا وابيك للكلام أحيان جسه وهذا شأن فقال بعده[27].

كمثلي ملال الفتى للنعيم &&&& إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته، وقال له بابي أنت: من أنت فقال أنا زهير بن نمير من أشجع الجن فكان كلما احتاج إلى زهير ذكر الأبيات فوافاه، أما الأبيات فكان قد ذكرها له من قبل وقال له متى شئت استحضاري فأنشدها وهذا الزعم الذي سار فيه على نهج من تحدثوا عن شياطين الشعراء وهي فكرة جاهلية هذا هو المدخل الذي مهد به للقصة وقد تحدث طويلاً في مقدمته عن استفادة موهبته. أما القصة فمحورها ان ابن شهيد سأل زهير نمير أن يصحبه في رحلة إلى وادي الحب وأن يلتقي بشياطين الشعراء والكتاب، يختار منهم المشهود له بالسيف وخلال لقائه بهؤلاء يشهدون له بالتفوق وفي ذلك يبث اراءه في اللغة والادب والنقد.

ويبدأ ابن شهيد رحلته بصحبة (زهير نمير) واصفاً كل مكان حلا به فيكشف عن الشاعر الذي سيزل في ضيافته يلتقي (بعتبة بن نوفل صاحب أمرئ القيس وعنترة في العجلان صاحب طرفة "ابي الخطار" صاحب قيس بن الحطيم زبعد أن تنتهي المجاورة

(27) كتاب التوابع والزوابع، ابن شهيد، المحقق د. مصطفى محمد أحمد علي السيوفي، بيروت، 1985م، ص 65.

بينه وبين هؤلاء يطلب إليهم الإجازة فيجزونه جميعاً، ويوصيه قائلاً فلا تكد قريختك فإذا اكملت محمام ثلاثة لا أقل ونفح بعد ذلك وما أنت إلا محسن على إساءة زمانك.

الحمام-الراحة ولقد أورد ابن شهيد هذه القصة الوصية ليضع نفسه على قدم المساواة البحتري ولا يقتصر ابن شهيد على شياطين الشعراء بل يلتقي شياطين الكتاب أيضاً على حد زعمه مع أن فكرة شياطين الكتاب لم ترد أصلاً وقد أشار إلى إنه التقى شياطين خيرة الكتاب مثل عتبة بن أرقم صاحب الجاحظ وأبي هنيرة صاحب عبدالحميد ثم قال له الاستاذ ان عتبة بن أرقم وأبو هبيرة صاحب عبد تاحميد إنا لنخبط منك بيد حيرة ونفثق أسماعنا منك بعيدة وما ندري القول شاعر أم خطيب فقلت الانصاف اولى الصرع بالحق احجى ولابد من قضاء فقاراً أذهب فإنك شاعر وخطيب كتب ابن شهيد هذه القصة لا حساسة بالظلم والغبن وإن أهل ععترى من الأدباء لم يقدروا حق قدره كما يرى وأنهم اضمروا له الكراهية حسداً وحقد وراء سعيه إلى نيل الاعتراف به ممن هم أرفع منهم منزلة من شعراء وكتاب اعقصور الماضية والدليل على ذلك ما أولاه من الظلم والغبن وأن أهل عصرة من الأدباء لم يقدروه حق قدره كما يرى وأنهم اضمروا له الكراهيو والحسد وراء سعيه إلى نيل الاعتراف به ممن هم أرفع منهم منزلة من شعراء وكتاب العصور الماضية[28].

ثانياً: طوق الحمامـة:

اجتمعت لهذا الكتاب فنون من العناصر ميزته على غيره من الكتب الأندلسية منها أنه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقها الأندلس كان شديد المعارضة في المراقعة. عن الدين وقد صرف حياته في المجادلات الفقهية العتيقة فتحقق شيئاً في وقته للحدين في هذا الموضوع مما ستوقف النظر وقد كان يحس وهو يكتبه أن بعض المتعصبين سيذكر ومن عليه تأليفه ويقولون أنه خالف طريقته وتجافى عن وجهته فقال ما أحل الله لأحد أن

(28) النثر في الأندلس، طبقات الزبيدي، ص 126.

يظن في غير ما قصدته قال الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اجتبوا كثير من الظن أن بعض الظن إثم".

وصرح أنه لا يجب المراءاة ولا أن ينسك نسكاً اعجمياً ومنها الطريقة التي اتبعها ابن حزم في هذا الكتاب فقد الفه شيخه ابن داود الأصفهاني كتاب الزهرة وجمع فيه أشعار الحب وخلط ذلك شيء من اشعاره الخاصة وخلط ذلك شيء من أشعاره الخاصة، أما ابن حزم فقد تقدم استاذة خطوات كثيرة حقاً استقل هذا الكتاب ليعرض أشعاره الغزلية يف مواقف متنوعة كما فعل كما فعل صديقة ابن شهيد في كتابه التوابع والزوابع لم يكن هو غايته بل كانت غايته الكبرى هي رسم صورة واقعية من حياته هو حياة الناس ببلدة من موضوع واحد هو (الحب) مخفياً أسماء بعض الشخصيات حيناً ومصرحاً ً بها في احيان كثيرة وقد تضمنت اعترفاته الذاتية وتجارب من حوله في شئون عاطفية ولا نستطيع أن نعين بالضبط منى كتب ابن حزم كتاب الطوق ولكنه الفه فيما يبدو بعد خروجه من قرطبة بوقت غير قليل إذ لا تزال ميزابه على ديارة ومعاهدة التي خربها البربر حية قوية كما أنه يتحدث عن مشاهداته مدن الأندلس المختلفة مما يدل على أنه براء بكتابته بعيد إستقراره النهائي واعتزاله الحياة السياسية وهذا لم يتم قبل 1419 وفصح أنه حين كتبه كان يسكن شاطية وأن كتاباً لأحد أصدقائه وصلة من المريه ثم جاءة صديق زائر وكلفه أن يصف له رسالة في صفة الحب ومعانيه[29].

لا ينتهي عليها وكانت مسامير التابوت قد فعلت والواحه قد اضرت عند دفع الماء باتجاه تلك الاحمة (الغابة الملتفة) فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته في أذن ظبية فقد ولداً لها فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتبعت الصوت حتى وصلت إلى التابوت ففحصت عنه اطلافها وهو بين من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه فحنت الطيبة والعمته حلمتها وأروته لبناً سائقاً وما زلت تتعهده وتربيه وتدفع عنه.

([29]) كتاب التوابع والزوابع لابن شهيد، المحقق د. مصطفى محمد أحمد علي السيوفي، ص 69.

لمسات حول فن النثر في الأندلس:

إن النثر في الأندلس كان ينسج على منوال النثر المشرقي ويسير على نهجه وكبار النثر في الأندلس هم كبار شعرائها أمثال ابن زيدون وأن شهد وابن حزم وأبي حفص ابن بردو ابن دراج القسطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم وهذا على عكس اساتذة النثر في المشرق حيث كان شعرهم أقل جودة من نثرهم ونذكر منهم على سبيل المثال أبا الفضل بين العميد والصاحب ابن عباد وأبابكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمزاني ولذلك فقد نشأ في المشرق ما يسمى بشعر الكتاب أي شعرهم إلى مستوى نثرهم وعند الحديث الأندلس يتبادر للذهن ما كان يعرف حينها بالرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية والأولى كانت تتم بين مسؤولي الدولة من وزراء وكاهلين عليها ومن الأمثلة عليها هذه المقتطفات مما كتبه أبو حفص بن برد وكان وزيراً توفي عام (414) إلى هزيل بن رزدين الذي حاول أن ينفرد بحكم بعض الجهات محاولاً إعادته إلأى نطاق الطاعة وفيها يقول:

أما بعد،،،

(اتاك الله رشدك وأجزل من توفيقك قسطك، فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم، وأنساهم تمهل غير مهمل بل بصعب اثارهم وليبلوا اخبارهم وجعلهم اجتانوا متباينين وأطواراً مختلفين فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلي بالمعصية وبين الفريقين اقوام خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً تمس الله أن يتوب عليهم ولو شاء الله كان الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، ولذلك خلقهم والسعيد من خاف ربه وعرف ذنبه، وبادر بالتوبة قبل قوتها وأستعق الرحمة قبل منها)[30].

النثر التاليفي في الأندلس:

الشيء الذي يلاحظ على حركة التأليف في هذا العصر أن المؤلفات تجنح إلى الاهتمام بالإنتاج الأندلسي والاقتصار على أخبار الأدباء الأندلسيون دون غيرهم من

([30]) المرجع السابق، ص 70.

المشارقة وفي هذا الاتجاه تكمن البذور الأولى للمدرسة الأندلسية المتميزة يف الفكر والثقافة.

فمن أوائل الذين صنفوا التاريخ الأدبي الأندلسي القسين توفى سنة 37هـ (919م) وصلنا عنوان مؤلف له هو (طبقات الكتاب الأندلسي) وعثمان بن ربيعة الأندلسي القرطبي المتوفي سنة 31هـ (922م) فقد صنف كتاباً مخطوطه في هذا الكتاب في فاس وألف تمام بن علقمه 184-283هـ كتاباً يبدوا أنه التاريخ الأدبي أيضاً وقد اعتمد عليه ابن دحيه يف ترجمته ليحيى الغزال.

ومن الذين الفوا في الأدب في هذا العصر عبدالله بن حبيب توفى ينة 229هـ وله من العمر أربع وستون سنة ويرجع نسبة إلى عباس بن مرداس السلمي وهو من كوة البيرة وكان اديباً نحوياً حافظاً وشاعراً منصرفاً في أضرب العلوم المختلفة من الأخبار والأنساب والأشعار وكانت له مؤلفات جيدة في الأدب إلى جانب تاليفه الكثير في التواريخ والفقه.

وفي الفقه والتفسير ألف بقي بن مخلد 201-271هـ كتباً حسناً ولقد كان ذا آراء أصلية تابى في التقليد يالشيء الذي آثار أصحاب الرأي والتقليد من فقها قرطبة ضده مرموة بالالحاد والزندقة وأوشكوا أن يقنعوا الأمير محمد بضرورة سفك دمه لولا أن لعلق بهاشهم ابن عبدالعزيز أحد قواد الأمير وأعظم وزرائه فشفع له وناشد الأمير في أمره ومن مؤلفاته المبدعة كتابه في تفسير القرآن الذي قال فيه ابن حزم الكتاب الذي اقطع قطعاً لا استنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسيراً مثله ولا تفسير محمد بن حريد الطبري والا عكر[31].

موضوعات النثر في العصر الأندلسي:

إن الكتابه في العصر الأندلسي كانت تدور حول الموضوعات الآتية:

أولاً: مراسلات سياسية:

([31]) فصول في الأدب الأندلسي، ص 88.

وصلتنا بعض فقرات أو إشارات إلى هذا النوع من خلال سياسة الولاة الأمويين في الأندلس وكلها يدور حول وعود يقطعها الولاة إلى القادة المنفصلين عن حكمهم وإلى العرب النازلين بأطراف مختلفة من الأندلس يستهونهم ويرجون نصرهم وتأييدهم، أو يحترونهم ويخوفونهم ولا يمكن أن توصف هذه المراسلات بأنها من النثر الأندلسي لأنها ليس لها من البيئة الأندلسية التي لم تكن تكونت بعد ويظهر أن معظم هذه المراسلات كانت تدور حول أوامر سياسية أو عسكرية يرسلها ألأمير إلى عماله أو قوادة يف أرجاء الأندلس أو توجيهات من السلطة المركزية لهم في هذه الأمور ولم تكن هذه المراسلات مقصورة على ما كان يكتبه الأمير الأموي إلى قوادة وغيرهم وما كانوا هؤلاء يرسلونه إليه من جواب بل كل حاكم كستقل بمدينته أو منطقته كانت له مراسلات مع عماله وقواده حول شئون الأمن والعمليات العسكرية وهناك إشارات إلى كتب بالتهديد والوعيد يرسلها الأمير إلأى المنشقين عليه.

ثانياً: مراسلات إدارية:

وتشمل هذا النوع من المراسلات الكتب التي كان الأمراء الأمويون أو الحكام المستقلون يرسلونها إلى عمالهم على النواحي وفيها عادة توجيهات وأوامر إدارية وكانت رسائل موجزة ليس فيها اطناب وحيث ما أطال أمية بن يزيد الكتابة إلى بعض عماله أمر عبدالرحمن بن معاوية بتمزيق الكتاب وكتب بخط بردة "أما بعد فإن يكن التقصير هنك مقدماً فعند الاكتفاء يكون لك مؤخراً وقد علمت بما يقدمت فاعتمد على أيهما أحببت"[32].

ثالثاً: عقد الأمــان:

عقد الأمان كان من المواضيع الرئيسية في كتابة هذا العصر بسبب الثورات التي كانت تقوم بها بعض المدن ضد الحكم الأموي وبعض المنشقين من الندلسيين عن السلطة المركزية وقد وصلتنا إشارات إلى عقود أمان مختلفة منها عقدان للأمان لأهل

(32) فصول في الأدب الأندلسي، ص 95.

طليطلة وعقدان لعمر بن حفصون من يشتر وطلب للأمان من أهل طليطلة بدر مولى عبدالرحمن.

رابعاً: كتب مبايعه.

خامساً: كتب توليه.

سادساً: التوقيعات:

تتصف توقيعات الأمراء الأمويين في الأندلس بالبساطة وبعدها عن التكلف والتعقيد وبخلوها من المحسنات البديعية فهي نشر مرسل على السجيه وتظهر هذه الصفات يف التوقيه الذي كتبه عبدالرحمن بن الحكم 206-238هـ حين عناه زرياب يوماً فأطربه فأعطاه ثلاثة ألف دينار فلاحقه عليها جواريه وأولاده يريدون أخذها واقتسامها فما كان من زرياب إلى أن نثرها عيلهم فكتب أحد الساعين بزرياب إلى الأمير عبدالرحمن فوقع عبدالرحمن على الكتاب.

ويلحق بهذا النوع من النثر أقوال مأثورة تروى عن بعض أمراء بني أمية وتتصف هذه الأقوال بالبساطة وسلامة الألفاظ وخلوخا من الصنعة اللفظية المستحسنة أو المستهجنة وهي تخاطب العقول مباشرة.

سابعاً: رسائل شخصية:

وصلتنا من هذا النوع من الرسائل أسطر لمحمد بن سعيد النجالي الذي كان يلقب بالأصمعي لحدة ذكائه وسعة حفظه فقد كان هذا الأديب كاتباً للأمير عبدالرحمن الأوسط وكان وزراء الأمير يستكتبونه أيضاً على العادة التي كانت مألوفه في البلاط وأنف الزجالي أن يكتب إلى الوزراء وكتب إلى الأمير كتاباً جاء فيه: "إن من وسم بميسم كتابته –ا'زه الله- وشرف بأسمها لجديد أن يعتلى على كتابة ةزرائه ويزدهي بحصانة أسراره" وله رسالة في الشكوى كتبها إلى الأمير عبدالرحمن يشكو بها نصيراً الحصي مولى بن أمية: "قد علم ما خصني به دون نظري من المنزله الرفيعة التي أصبحت علماً من أجلها محسوداً مرمياً الحدق تسلقني اللسن وتجول في الأفكار وعندما استوى بناؤها

وقام عمودها واستدرحت أطنابها سعى في هدمها من لا أزال أؤتل شرف ذكره وأجل رفيع قدره"[33].

الفصل الثالث

الطبيعــة في الشعر الأندلسي

المبحث الأول: الطبيعـــــة

(33) فصول في الأدب الأندلسي، حكمة علي الؤوس، ص 112.

المبحث الثاني: وصف المدن الأندلسية

المبحث الأول

الطبيعة

مقدمة:

شارك الوشاحون الشعراء في الألتفات إلى مجالي الفتنة في بلادهم فوصفوا كثيراً من مظاهر الطبيعة كالرياض والأودية والمتنزهات والأنهار وامتزجت أوصافهم للطبيعة باغراض أخرى كالخمر والغزل والحنين، وقد لاحظنا هذه الظاهرة في شعر الطبيعة أيضاً وذلك يرجع إلى توثق الصلات بين هذه الموضوعات وبين الشاعر نفسه، فالشاعر أو الوشاح يصف الطبيعة لصلته بها، ولإحساسه بأنها جزء لا يتجزأ من نفسه، هؤلاء يكتفي بوصف الطبيعة وحدها بل يمزجها غالباًَ بوصف الخمر لأن مجالس الشراب كثيراً ما كانت تقام في رحاب الطبيعة وبين أحضانها، فإذا ما نجلت الطبيعة أمامه بمفاتنها وإذا ما دارت الأقداح الخمر برأسه، استقطعت كوامن الذكرى في نفسه، فيكون الحنين، يكون الغزل وتتلاحم هذه الأغراض جميعاً لتكثف توازع الشاعر وإحاسيسه.

جماليات الطبيعة الأندلسية:

الطبيعة هي أصل الجمال ومبعثه، منها يستمد الإنسان طاقته ووجوده، وإليها يهرع إن أصابه مكروه أو أحب، ففي جمالها عزاء وسلوى، ومنها يستمد الشاعر صورة ويثري بظلالها شعره، وهي إلهام للرسام ولكل فنان، لكن مهما أبدع الشاعر أو الكاتب أو الرسام في الشعر أو الوصف أو الرسم، فإنما هم يقلدون الطبيعة، ويون حظ أحدهم من النبوغ من خلال اتقان تقليد جمالها ومحاكاته[34].

ولكن الفنان في تنظيمه أو تقليده للطبيعة يقلد طريقتها في الإنتاج ويعيد تشكيلها ويعدل فيها مضيفاً من صفاته الإنسانية ومن خياله حتى يصل إلى مبتغاه، وهذا الخيال لا يجعل الطبيعة وعناصرها أكثر عمقاً وحيوية فحسب، وإنما يعمق لإحساس بالآلفة نحوها[35].

وقد فرق أفلوطين بين الجمال الطبيعي والجمال الفني، فهو "يرى أن العمل الفني ليس مجرد تقليد للعالم المرئي ولكنه يصعد بنا إلى المبادئ التي قامت عليها الطبيعة"[36].

الطبيعة وجمالها الساكن والمتحرك:

شغلت الأندلس الناس بجمالها الطبيعي، وسحرت كل من رآي أو سمع بهذا الجمال، وهو مزيج من الأشكال والألوان والأصوات، في انسجام وتناغم وتألف، وأكثر الشعراء والكتاب من وضف رياضها وحدائقها وقصورها ومدنها التي تظهر جمال الطبيعة فيها بأبهى حللها وأحلى مباهجها.

وكان لتعلق الشاعر الأندلسي بهذا الجمال سببه، وإيثارها على سائر العينات، كيف لا وهي منبع سرورهم ومرتع لعيونهم، وفيها يقول الشاعر الأندلسي:

حبذا أنـدلس من بلـد &&&& لم تزل تنتج لي كل سرور

طائر شاد، وظلّ وارف &&&& ومياه سائحات وقصـور[37]

([34]) القيم الجمالية في الشعر الأندلسي: أزاد محمد كريم الباجلاني، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، ص 115-117.
([35]) المرجع السابق، ص 117.
([36]) المقتطف، ص 151-357.
([37]) المرجع السابق.

والشاعر بينه وبين الطبيعة محبة وآلفة، وهو ذواق ذو إحساس مرهف، ولذا نجده دون سواء الرسول الذي يتلقى وفي الطبيعة فيستجيب لجمالها، وتسحره ألحانها ومناظرها، فكم من شاعر تراه يطوف في روضة باسمة، أو نهر يختال أو جدول يترقرق أو قمر يرقه السمار، أو نجم يرشي للحائر، أو يرق يمكن اللقاء الناطق...الخ، فاستجابة للجمال وشعوره بالطبيعة.

والشاعر الأندلسي ادرك أهمية الجمال في الشعر لكونه يسر النفس وحواسها، وهو أيضاً يهيئ الخيال الشعوري الذي يعتمد بالدرجة الأولى على حاسة البصر، لأنها من أوائل الحواس قدرة على نقل الأحاسيس وتبادل المشاعر، وشعرهم جاء تعبيراً عن ساتجابة الذات الشاعرة لرغبتها في التمنع بجمال الطبيعة، وكذلك لـاثير مظاهر الجمال فيه[38].

وفي تناولنا لجمال الطبيعة تقسمها على قسمين الأول: الطبيعة الساكنة (الصامتة)، والآخر: المتحركة (الحية).

جمال الطبيعة الساكنة (الصامتة):

وهي "مظاهرها ووجودها المتجسد في سهولها وبراديها وحدائقها وحقولها وكا إلى ذلك" ومنهم من قسم الطبيعة الصامته إلى طبيعة وهو ذكرناه، وطبيعة صناعية وهي التي عمل الإنسان يف إنشائها ووجودها، كالقصور، الزخارف والبرك وغيرها، والأول يكون كلمة (الطبيعة)، لأنها تحدث في النفس الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها. أما الطبيعة الصناعية فمنفصلة عن روح الطبيعة بمعناها الحقيقي، ويكون الشعر الذي يقال في وصف القصور ومظاهر العمران وغيرها.

فالجمال يتكون بقدوم الربيع الذي ترقبه العيون وتبحث عنه الأنفس؛ لأنها تعيد الحياة لكل شيء، فهذا الوزير الكاتب أبو حفص بن برد (ت 418هـ) يرفع صوته بقدوم الربيع الذي نشر الحلل المزهية، فاخضرت الغصون وازينت بأزهارها، مبها تغلغل

([38]) نفح الطيب، ج1، ص 126.

اسعة الشمس بين أغصانها وإكسائها بألوان جميلة كعذراء تخجل حين تهوى، يقول في ذلك[39]:

هذا الربيعُ وكنت تلاقُيهُ &&& فأنظرُ يعيشك كيف تصحَّبهُ

قد نشترتحُلْلُ النبــات به &&& فبدأ مغضَّضُهُ ومذهُبهُ

والوردُ قد سَمَت الغصونُ به &&& تجلوهُ والأبصارُ تخطُبهُ

والشمسُ قد ضرب الضحاء بها &&& في صبغه فدكا تلهبهُ

فكــانُ مَن يهواهُ يخجلهُ &&& وكـأنَّ زيــاهُ تطيبهُ

فالشاعر استعمل فعل الأمر (أنظر) الذي يوحي باستثمار الربيع والاستمتاع بالطبيعة وصحبتها، فهو يعيش في فرح وسرور بين ذلك النبات الذي ينتشر في كل مكان، وهذه الأغصان التي بالأوراد، فهي تزهر لجنالها وصفاتها وهي سحر للناظر إليها.

الطبيعة المتحركة (الحية):

لم يكن الشاعر الأندلسيون بعيداً عن القيم الجمالية الخاصة بالطبيعة الحية المتحركة والمتمثلة بـ(الحيوان والطير والحشرات)، بأنواعها المختلفة، كما اهتم بالطبيعة الساكنة، فهما وجهان لعملة واحدة، وهما يمثلان الحياة الطبيعية ويكملان بعضهما في خلق الكيان الجمالي الذي تمتزت به الطبيعة الأندلسية[40].

وقد سار الشعراء الأندلسيون على نهج من سبقهم في مزجهم لهاتين العمليتين عن طريق وصفهم لأشعر الحيوانات والطيور التي عرفوها وشاهدوها يف زمانهم، واضعين كل ما يتعلق بجمال خلقها أو صفاتها.

وإننا "نلمس فيه روح التجديد مرة ونشتم فيه عبق التراث مرات"، وخيال الشاعر الخلاق الذي اهتم بجمال الطبيعة الساكنة يعود ويستلهم من جمالها المتحرك إذا نلتقي في أشعارهم بمعظم الحيوانات التي تناولها الشاعر في الشعر، آليفة كانت أم

([39]) ينظر: وصف الحيوان يف الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 24.
([40]) نفح الطيب، ج3، ص 572.

متوحشة، بل نراهم "يذكرون حيوانات لا ترد في الشعر الشرقي القرد، والنعام، والخنزير البري والزرافة"[41] وهي مما وجد في بيئات مجاورة للأندلس.

جمالية الطبيعة والعاطفة الإنسانية (الحب):

إن الجمال يسعدك ويزرع داخل نفسك الضوء والعطر، ويلهم مشاعرك أجمل الأحاسيس وأروعها. والطبيعة في تناسقها وعطرها وجمال اشكالها تذكر الشاعر بالجمال والحب، والشعر صورة للحياة أراد من خلاله الشاعر أن يجمع بين أهم عنصري الحياة، وهو "الطبيعة التي تُرى من خلال مزاج الشاعر"[42]، فهو عرض لمصائر البشر ضمن إطار الطبيعة وبجمالها وبما أن الشعر يستجيب بشكل طبيعي للمشاعر والتجارة الإنسانية، لم يكن من الصعب أن يكون مع الجمال المبثوث حوله قيمة جمالية موحدة في قالب شعري جميل، "لأنهما رفيقان وأليفان"[43]، يكملان بعضهما بعضاً.

والشعراء اعتادوا تشبه محاسن المرآة بمفاتن الطبيعة، فجعلوا قدها بالغصن وشعرهات كالليل، لكن الشاعر الأندلسي وتأثره بطبيعة الأندلس الخلابة كان أكثر تجاوباً وتأثراً من غيره بجمال الطبيعة. لذلك تراه يمزجها مع جميع الأغراض الشعرية، وكان للغزل النصيب الأوفر من هذا المزج، لأن الشاعر في أحضان الطبيعة يتذكر حبه وشوقه، فالجمال الموجود حوله يذكره بجمال الحبيبة، لذا قدم لنا الشعر الأندلسي أجمل اللوحات الإنسانية التي كونها في ظلال طبيعتها.

الطبيعة في الشعر الأندلسي:

- انتقال شعر الطبيعة من مرحلة إلى مرحلة:

فتح العرب والبربر متعاونين بلاد الأندلس، وواجه العرب فيها بيئة جغرافية تختلف عن البيئات المشرقية التي وفدوا منها كبيئات بلاد العرب والعراق والشام.

([41]) ديوان ابي اسحاق الألبيري، ص 83.

([42]) نماذج من الشعر الأندلسي، دراسة تحليلة نقدية: عبدالمجيد عابدين، الدار السودانية للكتب والطباعة، نشر وتوزيع الخرطوم، دار الفكر، بيروت، ص 9.

([43]) المرجع السابق.

وعلى الرغم من أن أكثر القبائل العربية اختارت بوادي الأندلس لإقامتهم فإنهم قد أحسوا من البداية أن هذه البوادي لا تشبه بوادي بلادهم التي جاءوا منها في طبيعتها الأرضية والمناخية والنباتية ولم تكن لديهم ابل يرحلون عليها كما تعودوا في بلادهم، وواجهوا بيئة صحراوية ممزقة وعرة المسالك فيه التقليد وفيه الابتكار.

لهذا نفضل أن نسمي المرحلة الأولى: مرحلة النزوع إلى الطبيعة المشرقية ونسمي المرحلة الثانية مرحلة الاستجابة للطبيعة الأندلسية، وبذلك نتجنب استخدام لفظي التقليد والابتكار في مثل هذا التصميم، ولاسيما إذا عرفنا أن الابتكار لم يكن تاماً في المرحلة الثانية، إذ ظل الشعراء متأثرين بأساليب المشرق وتشبيهاته.

- مرحلة النزوع إلى الطبيعة المشرقية:

يمثلها عبدالرحمن الداخل 138-172هـ مؤسس الدولة الأموية، وكان شاعراً مجيداً، وعاش في قرطبة عاصمة الدولة، حيث مشاهد الطبيعة الفاتنة، وحيث حديقة ثصره في بعض نواحي قرطبة تضم من زخارف الطبيعة ومفاتنها ما يأسر القلوب، ومع هذا كله كان قلبه مشدوداً نحو مواطن أبائه وأجداده في الشرق، ولم يكن يستدعي انتباهه من مشاهد قصره في الرصافة، ونواحي قرطبة، سوى نخلة وحيدة كانت مغروسة في حديقة قصره، ولعلها أول نخلة زرعت في أوربا، فهيجت شجنه، ولعلها كانت سلواه وعزاءه في غربته، وفيها يقول:

يا نخل أنت غريبة مثلي &&& في الغرب نائبة عن الأصل
فأبكي ومل تبكي مكبتسة &&& عجمـاء لم تطبع على خيل
لو أنها تبكي إذا لبكت &&& مـاء الفرات ومنيت النخل
لكنها ذهلت وأذهلني &&& بغض بني العباس عن أهلي

فالنخلة تجتذب انتباهه لأنها غريبة في بلاد الغرب مثله، ولأنها نزحت عن مواطنها كما نزح هو فكيف تكون سعيدة بهذه الغربة؟ إنها مكسبة، أي.

- المرحلة الثانية: الاستجابة للطبيعة الأندلسية:

ثمّ مرت الأجيال واستجاب الشعراء لمشاهد الطبيعة في الأندلس، واندمجوا في أحضانها، وبلغ من الفتهم لها وامتزاجهم فيها أن صار الشاعر يخلع عليها حالته النفسية، ويلون حركاتها وسكناتها بلون عاطفته، وانفعاله وقد يجد الصديق من صديقه ما يكره، ويلقى الأليف من الفته ما يغضب، كذلك كانت الطبيعة أحياناً مع صديقها الشاعر، وقد اقف حياله غير عابثة ولا مكترثة، وقد تواجهه بها بكره فيجيبها ساخراً ومتحدياً حيناً آخر. وبالجملة ستجد الطبيعة الأندلسية في الأمثلة التي ستعرض لها، متمثلة في حالات مختلفة من حيث موقفاً من الشعراء أنفسهم.

أ. فقد نجدها والهة حزينة لأن صاحبها محب واله حزين.

ب. وقد نجدها لأهية عابثة لأن صاحبها يلهو ويعبث يف أحضانها.

ج. قد نجدها حكيمة رزينة لأن صاحبها في حالة تأمل جاد عميق في الحياة.

د. وقد نجدها جافة قاسية فتلقى من صاحبها شيئاً من العتاب أو السخرية أو التحدي. (44)

الطبيعة الوالهـة:

الواله في اللغة هو الحزين المتحير من شدة الوجد والحزن، والفعل منه وله يله ولها، فهو واله وولهان وهي والهة وولهى، وكذلك توله يتوله ونبدأ بأبيات علي بن حصن أحد شعراء بني عباد في إسبيلية في القرن الخامس الهجري، وفي طائر صغير رأه على غصن الآراك "وهو نوع من الشجر".

وما هاجني إلا ابن ورقاء هاتف &&&& على فنن بين الجـزيرة والنهـر

مفستق طـوق لازوردي للكل &&&& موشيّ الطّـلى أحوى القوادم والطهر

نموذج آخر من شعر ابن زيدون 463هـ وهو من شعراء بني عباد في إشبيلية، وصاحب ولادة بنت الخليفة المستكفي. وقعت بينه وبين الخيلفة جهوة، فهرب من قرطبة إلى ضاحية قريبة منها تسمى الزهراء، وفيها قصور وبساتين، ووقف ابن زيدون بين

(44) نماذج الشعر الأندلسي، عبدالمجيد عابدين، درا الفكرن بيروت، 020564، ص 110.

مفاتن الطبيعة في الزهراء تذكر حبيبته، وهو في ألم وقلق واضطراب، فنظم هذه الأبيات: (ديوانه 139-140هـ):

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً &&&& والأفق طلق ومرأى الأرض قدراقا

والنسيم اعتلال-في أصائله &&&& كأنـــه رقّ لي فاعتـل اشفاقا

تذكر الشاعر حبيبته الجميلة حين رآى نفسه بين مفاتن الطبيعة الجميلة، حيث الأفق ضاحك باش، ومنظر الأرض رائق صاف والنسيم يمر ليناً هيناً بين يديه، في أوقات الأصيل، بين العصر والمغرب، وكأنه اعتلّ ولأن ورق عطفاً على حالة الشاعر وإشفاقاً عليه.

وتتجلى هذه الإلفة بين الشاعر والطبيعة في قوله حمدونة بنت زياد الأندلسية شاعرة عاشت في عصر الموحدين:

وقنا لفحة الرمضـاء واد &&&& شقاه مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحـة فحنا علينا &&&& حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا &&&& الزمـن المـدامة والــنديم

فالشاعرة هنا تلوذ بواد ذي شجر وارف الظلال في يوم شديد الحر، فيحنو عليها فالشاهد في معظم هذه النماذج أن الشاعر فيها مهموم دالة بلوذ بمشاهد الطبيعة لتشاركه همه ووجده، فيصورها مهمومة مثله[45].

الطبيعة الإلهيـة:

أما الشاعر هنا فهو خالي البال، يطلب المتعة في أحضان الطبيعة ويلتمس النشوة من خلالها. وقد يأوي الشاعر إليها ومعه عدة اللهو، كأسه وشرابه، ربما انعقد مجلس غماء بين مفاتن الطبيعة، يستمع فيه الشاعر إلى الحان الغناء، ويستمتع بمشاهد الطبيعة.

فمن الطبيعي إذا وقد تجاوبت الطبيعة مع ابن خفاجة وتجاوب معها، أن نجدها لاهية منتشية حين يأوى إليها للهو، فالورقاء التي كانت تنوح وبتكي أمام اشلاعر المحب المحروم، تصدح هاهنا وتغنى بالنشيد (ديوانه: 24):

([45]) المرجع السابق، ص 23.

ومجد ذيل غمامة قد نمقت &&&& وشيى الربيع به يد الأنواء

القيت ارحلنـا هناك بقية &&&& مضروبة من سرحة غناء

بل نجدد ابن خفاجة يقلد المشارقة في طريقة التوشية، أي النقش بالألوان، متأثر بابن المعتز ومن سار على نهجه من المشارقة، وذلك مثلاً في قول ابن خفاجة يصف نهراً (ديوانه: 12):

لله نهـر سـال فـي بطحــاء &&&& أشهـى ورودا من لمى الحسناء

متعطـف مثـل السـوار كأنـه &&&& والزهـر يكتفه مجـرّ سمـاء

والريح تعبث بالغصون وقد جرى &&&& ذهب الأصيل على لجين الماء

فالأبيات في معظمها تصف هيئة الماء والخضرة في حالة سكون وإستقرار، كأنها لوحة ثابتة، قلما نجد فيها موقفاً متحركاً، وربما كان آخر بيت أجودها، فالطبيعة هنا تتقمص شخصية ابن خفاجة، فهي مثله صاحبة كأس وطاس، تلهو وتلعب، وهي في نشوة الثمل.

الطبيعة الحكيمة الواعظة:

والطبيعة في هذه المرة ليست محبة والهة، ولا لأهية عابثة، وإنما هي معلمّ حكيم يلقى العظات والعبر، ومستودع للتجارب تذكر الناس بالماضي وتلقنهم دروساً للحاضر والمستقبل.

وخير مثال لهذا قصيدة ابن خفاجة التي مطلعها (ديوانه: 174):

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب &&&& تخب برحلي أم ظهور النجائب

فما لحت في أولى المشارق كوكباً &&& فأشرقت حتى جئت أخرى المغارب

ويمضي الشاعر في تلك الظلمات يصوتها بشعة مفزعة حتى يصل إلى جيل، فيقف عنده، ويصفه بهذه الأبيات[46]:

1. وأرعــن طـماح الـذؤابة بـاذخ ** يـطاول أعـنان الـسماء بـغارب

(46) نماذج الشعر الأندلسي، عبدالمجيد عابدين، ص 24، ص 27، ص 30.

2. يسد مهب الريح عن كل وجهه **ويزحم ليلاً شُهبه بالمناكب
3. وقور على ضهر الفلاة كأنه ** طوال اليالي مفكر في العواقب
4. يلوث عليه الغيم سود غمائم ** لها من وميض البرق حمر ذوائب
5. أصخت إليه وهو أخرس صامت ** فحدثني ليل السرى بالعجائب
6. وقال:الأكم كنت ملجأ قاتلٍ ** وموطن أواه تبتل تائب
7. وكم مر بي من مدلج ومؤوب *وقال بظلّي من مطيٍّ وراكب
8. ولاطم من نكب الرياح معاطفي ** وزاحم من خضر البحار غواربي
9. فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ** وطارت بهم ريح الندى والنوائب
10. فما خفق إيكى غير رجفة أضلع ** ولا نوح رقى غير صرخة نادب
11. وما غيض السلوان دمعي وإنما ** نزفت دموعي في فراق الصواحب
12. حتى متى أبقى أبقى ويظعن صاحب ** أودع منه راحل غير آيب
13. وحتى متى أرعى الكواكب ساحراً ** فمن طالع أخرى اليالي وغارب
14. فرحماك يامولاي دعوة ضارع ** يمد إلى نعماك راحة راغب
15. فأسمعني من وعظة كل عبرة ** يترجمها عنه لسان التجارب
16. فسلي بما غابكى وسرى بما شجا ** وكان على عهد السرى خير صاحب
17. وقلت وقد نكّبت لطيةٍ: ** سلام فإنا من مقيم وذاهب

تقسم هذه الأبيات إلى ثلاثة أقسام:

1. الأبيات 1-4 وهي تصوير هيئة الجبل وارتفاعه ورسوفه.
2. الأبيات 5-14 وهي عظة الجبل.
3. الأبيات 15-17 وهي استجابة الشاعر لموعظة الجبل.

في القسم الأول يصف الشاعر الجبل بأنه طويل القمم (أرعن)، يشمخ بقممة الذاهبة يف السماء، في تعال وكبرياء (طماح الزؤاية باذخ)، وقد أقام صلبه يطاول به أي يغالب وينافس به أرجاء السماء في الطول.

وهو لضخامته وقف في سبيل الريح وهو وقور على ظهر الفلاة، وراسخ في الصحراء يحفه الوقر من كل جانب وكأنه يقضي ليالي دهره متأملاً في الحياة مفكراً فإذا تهيأت السماء للأمطار وتلبدت السحب.

فالجبل في هيأته وارتفاعه ورسوخهن يمثل هنا كائناً ضخماً، شامخاً معتداً بنفسه وقوته وهو يلقي عظته البالغة[47].

في أبيات القسم الثاني (5-14): يوحي الجبل بالموعظة البالغة، بلسان الحال لا بلسان المقال، ويلقي إلينا مجديث عجيب عن غيرته ومشاهده يقول: كم من قاتل فر من وجه العدالة إلى الفلوات ولجأ إلأى كهف في الجبل ليختبي فيه، وكم من راهب بنى صومعته في رأس الجبل يلتمس فيه الراحة، ويفلت من وقدة الحر. وكم من رياح نكباء (أي تهب بين مهبي ريحين) قد ارتطمت بجوانب الجبل العاني، وكم من سيول تدفقت غزيرة كأنها بحار خضراء لقرارها، فزاحمت غوارب الجبل (بم غارب أي ظهر الجل وصليه).

وإلى متى يحي هذه الحياة الرتيبة المتسمة، يرعى الكواكب ساهراً أن يبتهل إلى الله أن يدركه برحمته، وأن يقذه من الحياة الرتيبة، ومن هذا الموقف الذي يكلفه ألاماً كثيرة ومتاعب شتى.

في القسم الأخير من الأبيات: يتمثل الشاعر متجاوباً مع عظة الجبل إذ وجد فيها سلواه وعزاءه، ووجد من الجبل قريناً يبثه شكواه أو جزن حزنه زلم بغت الشاعر أن يشيع الجبل حين يفارقه بقوله:

(سلام فأنا من مقيم وذاهب فهذه &&&& سنة الحياة، كانت الكائنات ولا تزل بين مقيم وذاهب، بين حيّ &&&& يستقبل الحياة، وميت يقضي عليه بالغناء).

فإذا نظرة عابرة إلى الجانب الفني يف هذه القصيدة وجدنا أن الشاعر قد تخير وزناً منبسطاً يتناسب مع وقار المناسبة وزرافة الموقف (بحر الطويل).

([47]) نماذج من الشعر الأندلسي، عبدالمجيد عابدين، ص 32، ص 33، ص 34، ص 35.

الطبيعة القاسية:

التي يتعرض لها الشاعر أو يفاجأ بها، وقد يؤدي هذا إلى نقطع اسباب الإلفة بينه وبينها، فهي من بجانبها تقف منه موقف عداء أو جفاء، وهو من جانبه يقف موقف المقاومة أو الإستسلام أو السخرية.

وهذا يذكرنا بما قاله الشاعر الأندلسي عبدالله بن صارة (ت 517هـ) الذي عاش في عصر الطوائف، في بلاط بني الأفطس وتبرم بمقاومة هنالك، فقال يخاطب أهل هذه المنطقة في أسلوب ساخر.

أحل لنا ترك الصلاة بأرضكم &&&& وشرب الحميا وهو شيء محرم

فراراً إلى نار الجحيم لأنها &&&& أرق علينا من شكير وأرحم

لئن كان ربي مدخلي في جهنم &&&& ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

الطبيعة والوصف المسرحي:

في كل الأمثلة السابقة لاحظنا أن الشاعر يتحدث عن نفسه وكشف عن ذاتيته وهو يصف الطبيعة، فإذا قال يا نخل أنت غريبة مثلي.....

أو قال: ولطالما عاطيت فيه مدامه صفراء تخضب أيدي الندماء.

أو قال: ولما رآى دمعي مراقاً آرابه بكائي...[48]

أو قال: كأن أعينه إذا عاينت أرقى بكت لما بي....

أو قال: قطعت به ليلاً يطار في الهوى.

أو قال: أصغت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى....

ففي هذه الأرصاف والتقريرات ذاتية واضحة، يعلن الشاعر فيها عن نفسه، ويستخدم ضمائر المتكلم كقزله مثلي – دمعي – أرقي – يطارفي – فحدثني ألخ....

أما الوصف المسرحي قهو على العكس من ذلك، تحتجب فيه ذاتية الشاعر، فلا يتحدث عن نفسه حديثاً مباشراً ولا يظهر بشخصه على مسرح الطبيعةتن وإنما يخلق من

([48]) شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل، ص 36.

الطبيعة مسرحاً، ومن مساهدها أفراداً، كأنهم أشخاص أحياء، يقوم كل منهم بدور خاص على مسرح الطبيعة، قد يكون دوراً هزلياً، أو بطولياً، أو غرامياً، ويقف الشاعر من هذه المواقف والأدوار بما يدور على مسرح الطبيعة دون ان يندمج فيه بشخصه أو يعلن فيه عن ذاتيته[49].

المبحث الثاني
وصف المدن الأندلسية

عمد الشعراء الأندلسيون إلى وصف المدن الأندلسية، وتخليدها في الشعر، فهي الوطن، والأم والحبيبة، ولهذا لانكاد نجد شاعراً منهم إلأ وردها في شعره، أما وصفاً، أو مصوراً لمعالمها وآثارها، وقصورها، ومنتزهاتها وما حل بهذه المدن وخراب عند سقوطها بيد الأسبان والتحسر على هذه المدن الجميلة التي تمثل معالم للفكر والثقافة والحضارة الإنسانية وسندرس في هذه الجزء ثلاث عشر مدينة أندلسية ورد ذكرها في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي، لها من آثر واضح، ومكانة رفيعة في نفوس الشعراء.

1-1-2 قرطبة[50]:

([49]) المرجع السابق، ص 40.
([50]) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص 226-227.

هي مدينة تقع غربيّ النهر الكبير الذي عليه إِشْبِيْلِيَّة، وقرطبة شرقي إشبيلية، وهي في جنوبيّ طُلَيْطِلَة، وموقعها يف أواخر الإقيلم الرابع من الأقاليم السبعة، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وهي أعظم مدائن الأندلس. وعليها سور ضخم من الحجر، ولها سبعة أبواب، بلغت عدة مساجدها ألفا وستمائة مسجد، وحماماتها تسعمائة حمام، وهي مدينة خصبة، ومن مضافات قرطبة مدينة الزهراء، تاعصر القصير، وحصن المدوّر، وحصن مراد،ومن أعمال قرطبة كورة غافق وكورة إِسْتِجّة. ومن معالم قرطبة المشهورة مسجد قرطبة الذي قال فيه عبدالله بن الشمر:

بكي مسجداً لم يبن في الأرض مثله &&& وهل مثلهُ في حوزة الأرض مسجدُ

لهُ عمدٌ وخضـــر كأنمـا &&& تلـوحُ يواقيت بهـا وزبـرجدُ

فذها البناء العظيم الذي لم يبن على وجه الأرض مثله من أجل العبادة والعلم معاً، ويصف الشاعر في البيت الثاني هذا المسجد الذي تتنوع أعمدته بين الأحمر والأخضر وكأنها وهي قائمته ياقوت وزبرجد.

ومن معالم قرطبة المشهورة "مدينة الزهراء"، هي مدينة بناها الناصر الأموي في غربي قرطبة[51].

وقد وصف أحمد بن عبدربه، قصور مدينة قرطبة والرصافة بقوله:

ألما على قصر الخليفة وأنظـرا &&& إلى منية زهراء شيدت الأزهرا

يصف الشاعر أحمد بن عبدربه أحد القصور يف مدينة قرطبة التي تدل علة عظمة هذه المدينة الأندلسية، اليت تعد من أجمل المدن الأندلسية التي خلدها الشعر على مر العصور والأزمان، من معالم هذه المدينة أن ينظر إلى قصر الخليفة وإلى منيته الزهراء، فهي مزوقة من شدة جمالها تحسب أنجمها في السماء هذه المدينة القصور الإسلامية التي يصف الشاعر واحداً منها بصفات عديدة تدل على روعة وجمال الفن الإسلامي. وهذه صورة جميلة رسمها الشاعر لهذه الناعورة التي تضيف جملاً إلى جمال مدينة قرطبة.

([51]) العمري، مسالك الأبصاتر، ج4، ص 467: 26.

2-1-2 غرناطة[52]:

ويقال: أغرناطة بهمزة مفتوحة أولها، وهي مدينة في جنوب الأندلس موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة، وهي دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس وخصها الله تعالى من المرج الطويل العريض، وهي مدينة كبيرة مستديرة رائعة المنظر، كثيرة الأشجار والأمطار والأنهار والبساتين والفواكه، وهذه الصفات العظيمة تجتمع فيها كل الخيرات العظام التي لم تتوفر لأي مدينة غيرها، ومن صفاتها الأخرى أنها قليلة مهب الرياح، لا تجري بها الريح إلا نادراً لإكتناف الجبال إياها.

وينحدر نهر سنيل من جبل (شلير) وهو طود شامخ لا ينفك عنه الثلج شتاء، ولا صيفاً فهو لذلك شديد البرد ويؤثر برده بغرناطة في الشتاء لقربه منها، وفي ذلك يقول ابن سارة (ت 517هـ) الشاعر:

أحل لنا تركُ الصلاة بارضكم &&& وشُرب الُحمَّيا وهو شيء مُحَّرمُ

والواضح من هذا الوصف لجامع غرناطة أنه أقيم في وسط المدينة، وقد ظهرت الفنون الإسلامية الأندلسية التي تدل على عظمة الزخرفة الأندلسية، وقد افنن في صنعه، وكان يمر الماء بداخله وخصصت فيه أسانيد لتعليم جميع أنواع العلوم لطلبة العلم.

2-1-3 إشبيلية[53]:

مدينة تقع على غربي نهرها الأعظم وجنوبيه، وهي في غربيّ قرطبة، وسميت إشبيلية بالمدينة في غرب الأندلس وجنوبه على القرب من البحر المحيط، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم نصرها وهي ألأكثر: كورة أركش، كورة أدته، ومن الممالك المضافة إشبيلية أيضاً مملكة بشلت قصر يعرف بقصر الشرجيب وهو الذي يقول فيه بعض الشعراء:

وسلَّم على قصر الشراجيب عن فتى &&& له أبداً شوق إلى ذلك القصر ْ ُ

وقد وصف ابن حمديس أحد قصور المعتمد بإشبيلية فيصفه بالجمال.

([52]) العمري، مسالك الأبصار، ج24، ص 47.

([53]) هو أبو محمد عبدالله بن سارة من ولد أحمد بن المدبر ولقبه الشستزيني نسبة لبلدة شستزين، التي تقع إلى الغرب من باجة بالقرب من مصب نهر باجة في البحر، عاش في موسوعة شعراء الأندلس، ص 21، ص 153.

4-1-2 طليطلة[54]:

تلفظ (طُلَيْطِلة) وتلفظ أيضاً: (طُلَيْطُلَة)، وهي عاصمة الأندلس، موقعها في أواخر الإقليم الخامس وهي مدينة كانت قاعدة الأندلس في القديم، وبها كان كرسي الملك (لزريق) آخر ملوك القوط، الذي انتزعها السملون منه.

وهي من أمنع البلاد وأحصنها، مبنية على جبل عالٍ، والأشجار محدقة بها من كل جهة، يصير بها الجلنار بقدر الرمان ولها نهر يمرّ بأكثرها، وينحدر من جبل الشارة من عند حصن يقال له (باجة) وبه يعرف نهر طليطلة.

ومن مضافات مدينة طليطلة (مدينة الوليد) وهي من أحسن المدن، تقع في غرب طليطلة، ومنها (مدينة الفرج) وتقع شرق طليطلة ومنها (مدينة سالم) وهي بالجهة بالثغر من شرقي الأندلس، وهي مدينة جليلة يوجد بها قبر "المنصور بن أبي عامر".

5-1-2 جيان:

موثعها في أول الإقيلم الخامس من الأقاليم السبعة، وهي أعظم مدن الأندلس وأكثرها خصباً ، كانت بيد بني الأحمر أصحاب غرناطة، فأخذها الفرنج منهم بالسيف بعد حصار طويل ويه كثيرة العيون، طيبة الأرض، كثيرة الثمار، وبها الحرير كثير، وقال ابن أبي ركب بجيان بعد خروجه منها:

أبجيان أنتِ الماءُ قد حبك دونهُ &&& وإني لظمان إليك وصادي

يصف ابن ابي ركب بجيان بأنها الماء الذي يروي العطشان وهو الظمأن.

6-1-2 بطليوس:

وهي مدينة كبيرة من غرب الأندلس، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة، وهي حديثة الاتخاذ بناها عبدالرحمن بن مروان المعروف بالجليقي اذن الأمير

([54]) النويري، نهاية الأدب، ج1، ث 408، أنظر ديوان ابن حمديس "447-527" صحة وقدم له إحسان عباس، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت (1379هـ1960م)، ص 378-379.

عبدالله في ذلك، وهي مدينة عظيمة كانت بيد المتوكل بن عمر الأفلس، وبنى بها المباني العظيمة وفيها يقول أبو الحسين يحيى بن نجاح القرطبي الملكي مولى جعفر الأموي يعرف بابن الفلاس المتوفي لمصر سنة 422هـ.

2-1-7 طرطوشة:

وهي مدينة في شرق الأندلس، وموقعها في الإقليم الخامس من الأقليم السبعة، وهي شرقي بلنسية في الجهة الشرقية من النهر الذي يمر على سرقسطة ويصب في بحر الزقاق.

2-1-8 بلنسية[55]:

وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة، وهي في أحسن مكان، وقد حُفّت بالأنهار والجنان، فلا ترى إلاّ مياهاً تتفرّ ع، ولا تسمع إلا أطياراً تسجع، وهي على القرب من بحر الزقاق.

ومن مضافات بلنسية مدينة شاطبة، وهي مدينة عظيمة، لها معقل في غاية الإقناع، وعدة متنزهات منها: البطجاء، والعذير، والعين الكبيرة، ومنها أيضاً دانية، وهي مدينة غربي بلنسية على البحر عظيمة القدر كثيرة الخيرات.

وأنشد ابن حريق:

بلنسية بيني عن القلب سلوة &&& فإنك زهرٌ لا أحــنَّ لزهدك

وكيف بحنَّ المرءُ داراً تقمسّتْ &&& على ضاربي جُوع وفتنة مشرك

2-1-9 سرقسطة[56]:

وهي مدينة أحدقت بها بساتينها، زمرة خضراء، والتفت علها أربعة أنهار فأصبحت بها مرصعة مجزعة ولسرقسطة متنزهات كثيرة منها (قصر السرور) و(مجلس الذهب) وفيه يقول ابن هود:

([55]) الشعر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي، ص 37، ط1، دار جلس الزمان، للنشر والتوزيع، الطباعة، عام 2013م.

([56]) الشعر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي، ص 37، ط1، دار جلس الزمان، للنشر والتوزيع، الطباعة، عام 2013م.

قصْرَ السُّرور ومجلس الذهب &&& بكما بَلغْتُ نهاية الطرّب

فيصف الشاعر قصر السرور ومجلس الذهب بأنهما مبلغ ونهاية الطرب.

2-1-10 مرسيـة:

وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقياليم السبعة، وبمرسية عدة منتزهات منها: الرَّشَاقة، والزَّتقات، وجبل إيل، وهو جبل تحته البساتين وبسط تسرح فيه العيون. تحتوي مدينة مرسية على العديد من المتنزهات الجميلة التي كان يقصدها الناس من أجل التنزه والترويح عن النفوس والتمتع بجمال الطبيعة في هذه المدينة التي قادهم ودهم إليها من أجل التمتع بجمالها وروعة بنائها، وهي مطالع للشموس التي تعطي هذه المتنزهات جمالاً على جمالها[57].

وصف الطبيعة:

شعر الطبيعة هو الشعر الذي يتخذ من عناصر الطبيعة الحية والطبيعة مادته وموضوعاته، وقد أولع الشعراء بالطبيعة، لأنها مصدر وحيهم، ولهذا تغنوا بها في أشعارهمن تعبيراً عن انفعالهم بمشاهدها وحبهم لها إظهاراً لمدى قدرتهم التصوير[58].

وشعر الطبيعة لا يخلو منه آدب أمة من الأمم، وهو في شعرنا العربي قديم الأدب العربي نفسه، وقد تغنى شعراء الأندلس في وصف جمال الطبيعة، وسعوا فيه، وأكثروا من ضروبه، وذهبوا فيه مذاهب شتى، لأن الطبيعة بمفاتنها أروع أغنايهم، فهي الأم، هي الوطن، وهي الجمال وإليها والعيش غير.

ولعل خير ما يصور جمال هذه البلاد وطبيعتها، حب أهلها لها، وقاله عن الطبيعة الأكبر في الأندلس، ابن خفاجة، حين جسد أهل بلده على الجنة حباهم الله بها، حيث الأشجار والأنهار، الأمواه، والأطيار قال[59]:

أهـل أنـدلس لله دركـم &&&& مـاء وظل وأنهار وأشجارُ

([57]) الشعر الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي، مرجع سابق.

([58]) الأدب العربي في الأندلس، عبدالعزيز عيتق، ص 184.

([59]) نفح الطيب، ج5، ص 680.

جنة الخلد الا في دياركـم &&&& ولو تخيرت هذا كنت اختارُ

تحسبوا في غدان تدخلوا شعراً &&&& فليس تدخلُ بعد الجنة النارُ

إنه يشعر أنها جنة الله في الدنيا، من دخلها فقد حرمت عليه النار، وهي سورة باقية على الدهر، فيها حقيقة هذا الشعور، وصدق تلك العاطفة. فقد وصفوا الرياض والأنهار، والأشجار، ثمارها، والمياه الجارية، كما دار وصفهم للطبيعة حول الأنهار والجبال والمدن والقصور، وغير ذلك مما وثعت عليه أعينهم[60].

تبسـم عن كل زاهـر أرج &&&& مثل الكما ابتسمت عن زهر

إن جسمي كما علمت بأرض &&&& وفـؤادي ومالكيـه بأرض

وهو بهذا يعبر عن شعور الراحلين إلى الأندلس جميعاً.

وصف المتنزهات:

تفردت الأندلس بكثرة متنزهاتها، فلم تكد مدينة من مدنها تخلو من متنزه جميل، فاشتهرت إشبيلية بمنتزهاتها الجميلة كعروس والسطانية وشنتبوس، وإشتهرت غرناطة بحور مؤمل ونجد، وإودانت قرطبة بفحص السرادق والسد والمرج النضير وغيرها، كانت هذه المتنزهات حافلة بألوان المتع والمسرات "فلم تكن تخلو من وجه جميل". ويصف ابن شهاب المالقي يوماً من أيام السرور التي قضاها في (متنزه بقرطبة) حيث ارتاه مع رفاقه والشمس مازالت في خدرها وظلوا يقطعون يومهم شدواً واغتباقاً ونشوة ورجع أحاديث إلأى أن أذنت الشمس بالرخيل يقول[61]:

ويـوم لنا بالسـد لـو رد عيشـه&&&& بعيشـه أيـام الزمـان رددنـــاه

بكرنا له والشمس في خدر شرقها &&&& إلى أن أجابت إذ دعا الغرب دعواه

قطعناه شدوا واغتباقاً ونشـوة &&&& ورجع حديث لو رقـى الميت أحياه

على مثله من منزه تبتغي المنى &&&& فللـه ما أحلــى وأبـدع مــرآه

شدتنا به الأرحـا وألقت نثارها &&&& علينـــا فأصغينـا لـه وقبلنـــاه

([60]) السيد احمد عمارة، شعر بني أمية يف الأندلس، جميع الحقوق محفوظة لناشر مكتبة المتنبي، ط1، ط2، 1422هـ - 2001م.

([61]) فوزي عيسى، في الأدب الأندلسي، كلية الآداب، الإسكندرية، 2004م، دار المعرفة الجامعية، 40 شارع سوتير-الأزاربطة، ص 27.

لئن بان إنــا بالأنين لفقــده &&&& وبالدمـع فـي إثـر الفراق حكيناه

ونلاحظ أن أغلب أوصافهم للمتنزهات بل وللطبيعة عموماً تأتي على نحو من التذكر وإستراجاع الماضي والبكاء عليه.

الأنهــار:

تفردت الأندلس بكثرة أنهارها، فهناك نهر إشبيلية الأعظم، وهناك نهر جزيرة شقر الذي يلتف بها التفاف السوار بالمعصم، وهناك نهر غرناطة الذي يتوزع على ديارها وحماماتها واسواقها وأرحاها الداخله والخارجة وبساتينها، وكانت هذه الأنهار ذات أثر كبير في حياة الأندلسيين، فعلى ضفافها تنتشر الحقول والبساتين والمتنزهات وقد فتين بها الشعراء قصورها في قصائدهم، وأفاضوا في تصويرها، فوصفوها في سكونها وجريانها وأنسيابها، ووصفوا القوارب التي تتهادى على صفحات مياهها، ووصفوا الفناطر التي حولها مثل قنطرة قرطبة وقنطرة إشبيلية وغيرها.

وقد أوحى نهر إشبيلية الأعظم بصورة كبيرة للشعراء، فصوروا تصاعد المد وانحساره فيه وتوقفوا طويلاً أمام هذه الظاهرة ولهم فيها أوصاف كثيرة، فمن ذلك قول أبي المطرف بني عمرة[62]:

يا حمص إنك في البلاد فريدة &&& ببديع حسن جل عن تحسين

أحببت بنهرك حين يزخر مدة &&& فيروق منه تحرك كسكـون

ويعود الجزر الذي يبقى على &&& شطيه حجر أدونــه للطين

ولابن سهل أوصاف كثيرة في النهر، لكنه لا ينظر إلأى النهر نظرة جزئية وإنما يضعه في إطار المنظر الطبيعي داخل المنظر العام الذي يرسمه ابن سهل للربيع فوق فم الخليج في إحدى مروج إشبيلية يقول:

لله نهــر ما رأيت جمـاله &&& إلا ذكرت لديه نهـر الكوثر

والشمس قد ألثت عليها رداءها &&& فتراه يرفل يف قميص أصغر

(62) نفح الطيب، ج3، ص 217.

ويرسم ابن سهل لوحة أخرى للنهر عندما مالت الشمس للغرب ويتكئ على عنصر التشخيص، فيقول:

نهر كأن الشمس تملأ قلبه &&& فيجن داء للغرام دخيلا

الريح تبدى الثوب منه معكراً ً &&& والشمس تلقى صارماً مصقولا

وكأنـه ذو فجعـة لفواقهـا &&& قد ضـم خـوف الوداع غليلا

وتتعدد صور النهر وأوصافه عند شعراء الأندلس، فيتخيلونه تاره كالسوار وأخرى كالقوس، وثالثة كالدرع أو السيف ومن الصور المألوفة عندهم تشبيه النهر بالأراقم في التوائها وهي صورة قديمة ولكن ابن الأبار يكثر من ترديدها في شعره، فيقول[63]:

لله نهر كالحباب &&&& ترقيشه سامي الحباب

وقد يضيفون على هذه الصورة إضافات أخرى فيشهون الحباب المتناثر على صفحة النهر بالسلخ الذي خلعته الحية عن جسمها ولذلك تحذره الغصون فيكون ميلها على بخياته بالإيماء، ويعبر أبو الحسن بن نزار عن هذه المعنى، فيقول[64]:

والنهـر يبسم بالحباب كأنه &&& سلخ نضته حية رقشاء

فلذاك تحذره القصون فميلها &&& ابداً على جنبائه إيماء

فمن ذلك قول أبي المطرف بن عميرة يصف رحلة نهرية قام بها مع رفاقه في نهر جزيرة شقر حيث ركبوا زورقاً ومعهم شباك الصيد فقضوا يوماً جميلاً بين الصيد واللهو، يقول[65]:

خذ من حديثك إن وصفك يطـرب &&&عن يوم أنس ذكـر ومستعذب

وأطلب إعاثــه من الأيــام إن &&& سمحت بذا واظن ذلك يصعب

يوم آرانا الحسن فيه في النهر الذي &&& قد طاب منه مورداً ومشرب

([63]) قضايا النقد الدبي والبلاغة، ص 95.

([64]) أزهار الرياض، ج3، ص 223.

([65]) رايات المبرزين، ص 156.

وألبيات مجرد وصف تقريري للنزهة النهرية اليت قام بها الشاعر ورفاقه وهي مجتزاه من قصيدة طويلة ينقل ابن فضل صورة طريفه لأحد رفاقه الظرفاء الذين صحبهم يف الرحلة وصفه وقد أكثر منه الشعراء مما يدل على أنه تأصل كموضوع بارز في شعر الطبيعة في الأندلس.

الأنهار والبرك:

وكما أحب ابن سارة الربيع والرياض والأزهار والثمار فقد فتن أيضاً بالأنهار والبرك التي كانت وافرة في بيئة الأندلس وطارت زوارقها في سماء الماء عقباناً زابدى نسيمها من الأمواج والدارات سرراً وعكاتاً، يف زورق يجول جولان الطرف، ويسود اسوداد الطرف فقال بديها:

تأمل حالنا والجو طلق &&& محياه وقد طفل السماء

وقد جالت بنا عذراء حبلي &&& تجاذب مرطها ريح رخاء

بنهر كالسجنجل كوشرى &&& تعبس وجهها فيه السماء

النرجس والبهار:

وتتسع آفاق الطبيعة أمام ابن سارة فيقتى بألوان معينة من الأزهار بخاصة، كما افتتن بالربيع بعامة، إذ تراه يعمد إلى وصف وصف حديقة مزدانة بالنرجس البيض والبهار الذهبي، برتاجتها عرضتهما الحديقة على أعين النظار شهادة لها بالسبق في الحسن والجمال.

وكان لابد أن يشاطرهما الماساة أكرم الجيران وهو الندى الذي بكى إشفاقاً فأنهمرت دموعه في وقت الضحى الرقيق:

وحديقة من نرجس وبهار &&&&رفعت لواء الحسن للنظار

فكأنما هذا ضحى متهلل&&&& وكأنما هذا أصيل نهار

أخوان أمهما شمس الضحى &&&& وابوهما قمر السماء الساري

شربا سلاف القطر حتى عربدا &&&& وتراجما بكواكب الأزهار

الرياض والأزهـار:

حظيت الروضيات بنصيب وافر من عناية شعراء الطبيعة فرسموا لوحات كثيرة صوروا فيها ما تشتمل عليه الروضة من أشجار وأزهار وجداول وطيور، وغالباً تاتي روضياتهم طإطار عام لموضوع الخمر، وتبدو هذه الظاهرة في كثير من قصائد ابن سهل.

وقد يأتي وصف الروضة في إطار حديث الشاعر عن الحنين إلى قلاء أحبابه على نحو ما يبدو في قول صفوان بن إدريس[66]:

هل نلتقي في روضة موشية &&&& خفاقه الأغصان والأفيـاء

في حيث أتلعت الغصون سوالفا &&&& قد قلدت بلالــي الأنداء

وكأنمـا جـاء النسيم مبشـراً &&&& للروض يخبره بطول بقاء

فكساه فلعة طيبة ورمـى لـه &&&& بدراهم الأزهار رمي سخاء

والقصيدة أشبه ببائة تضم ألواناً متنوعة من الزهور، ففيها الياسمين والورد والأقحوان ويبدو عنصر التشخيص واضحاً في الأبيات.

وبدت ثغور الياسمين فقبلت &&&& عني عذار الآسة الميساء

وقد التفت الشعراء إلى الأزهار أكثروا من وصفها ولهم مقطعات كثيرة في وصف الورد والياسمين والسوسن والنيكوفر وغيرها.

الدواليـب:

وقف الشعراء ايام الدواليب التي كانت تنتشر حول الرياض والبساتين فتأملوها وهي تدور فترفد الرياض بمياهها، وشبهوا اصواتها بأنين العشاق وخلعوا عيلها كثيراً من الأوصاف الإنسانية فمن ذلك قول ابن سعد الخيز البلنسي[67]:

([66]) ابن سارة الأندلسي، حسن أحمد النوس، ص 156.

([67]) ديوان ابن سهل، ص 199.

دولاب ينيض بسلسل &&&& في جنة قد أينعت أفنانا

وصف المظاهر الحضارية:

وعلى نحو ما اعجب الشعراء بطبيعتهم الجميلة، أعجبوا أيضاً بمظاهر الجمال والحضارة في بلادهم، فوصفوا القصور والتماثيل والبرك الصناعة والفوارات وغيرها وقد إشتهرت الأندلس بقصورها الفخمة ابلاذخة، وعبر الشعراء عن إعجابهم وانبهارهم بهذه القصور في مقطعات كثيرة فمن ذلك قول أبي الحسن بن فضل يصف قصور شنتبوس[68]:

هي القصور البيض لاما حدثوا &&& عن إرم وغيرها من البنا
تختطف الأبصار من لالائها &&& والليل قد أرخى القناع الأدكنا
كأنما النهر الخضم تحتها &&& مجرة الأفق إمتداداً وسنا
وهي عليه كالنجوم سحراً &&& بين جموع وفرادى وثنا

وقد روع حباب الماء وهو يتدفق منها إلأى البحيرة ويصف الماء وقد أنساب إلى الأرض فاتخذها سكناً وأخذ يفتر عن ثغر جميل فانجذبت إليه الأغصان ومالت ثقيله، يقول[69]:

ينساب عنها حباب الماء مندفعاً &&&& إلى البحيرة مثل الأيم من رعب
كانمكا ما رتحت الأرض في كيو &&&& فحين أبصر وسعا جو في الهرب

وقد أعجب الشعراء أيضاً بصهاريج المياه التي كانت تنتشر في الحدائق.

الأس:

وفي نهاية مطافنا مع ابن سارة يف وصفه الذي يخص به نباتاً واحداً ليركز عليه تجربته، نلتقي معه الأس التي أثارته، فاختار باقة منها ليقدمها بين يدي مدحه للأمير الوهوب في إعجاب مبالغ فيه، حيث إدعى أن عينه لم تقع على أروع من قضيب ناعم

([68]) نفح الطيب، ج1، ص 470.
([69]) في الأدب الأندلسي، فوزي عيسى، درا المعرفة الجامعية، ص 38-39.

وقد أستعار من الزبرجد الأخضرغصناً لدناً مثنياً يف رقة وطيب رائحة ثم أخذ ينثر الطل أبيض شفافاً كحبات اللؤلؤ.

ما رأت عيني كخــوطة أس &&& ليست بردة الثباب الرطيب

واستعارت من الزبرجد غصناً &&& يتثنــى بكل حين وطيب

تنثر الطـل لـؤلـؤاً كأيـادٍ &&& نثرتهـا يـد لأمير الوهوب

الفواكـه والثمـار:

وكما تأثر ابن سارة بالربيع والرياض والأزهار، فقد تأثر كذلك بثمار البساتين وأعجب بها. ومعلوم أن البيئة الأندلسية كانت حافلة بألوان من الفواكه المختلفة الباقية على مدى السنة صيفاً وشتاءً، وقد سبقت الإشارة إلى ما وهب الله مدينة الشاعر الأولى "شنترين" من خيارت بها فيها الشجار والثمار، كما وهب الله البيئات الأخرى التي تجول فيها ابن سارة الكثير من هبات الطبيعة، ليعقد شبهاً بينها وبين النارنجة وليجد هذا الشبه والجذوة التي يحملها قأبسها وهي معدومة اللهب.

يا رب نارنجة يلهو النديم بها &&& كأنها كرة من أحمرد الذهب

أو جذوة حملتها كف قابسهـا &&& لكنهـا جذوة معدومة اللهب

فطـوراً أرى ذهبـاً مضرماً &&& وطـوراً أرى شفقـاً مذهبا

والمقطوعة على قصرها وإيجازها حافلة بالصور الملتهبة، والألوان الذهبية وقد استعان بالجناس بين كلمتي مذهب ومذهب.

السفرجـل:

ولابن سارة مع السفرجل قصة سبقت الإشارة إليها حينما تصدى للنشائمين من تقديم السفرجل للصحاب في بعض المناسبات. وقد أورد البلوي بقية القصة حيث قرر[70]: أن الحصري قال في معنى التشاؤم بإهداء السفرجل:

متحفي بالسفرجل &&&& لا أحب السفرجلا

مبتــداه سفرجل &&&& سفرجِ ل وأعتلى

بركة وسلاحف:

لقد كانت ألندلس عامرة بالحدائق والرياض الخاصة التي كانت مزينة بالبرك والأحواض بالفوارت أو يدونها، وقد أعجب ابن سارة بواحدة منها إنسيابية الشكل فوقف يتأملها مع ما يحيط بها.

وأخيراً فقد أعطاها ابن سارة صورة مبتكرة حين تخيلها وهي تبدي فنوناً من التصرف والحركة جيشاً من النصارى يحمل على اكتافه تروساً من الجلد الخشن القوي[71]:

لله مسجـورة في شكل ناظـرة &&& من الأزاهر أهداب لها وطف

فيها سلاحف الهاني تغامسها &&& يف مائها ولها من عرمض لحف

كأنها حين يبديها تصرفها &&& جيش النصارى على أكتافها الحجف

البـدر:

وابن سارة كثير التأمل للعلويات من بدر، شمس ونجوم وأفق وسحب وفلك أعلى وما إلى ذلك، يصفها ويتحدث عنها ويشتق منها الصفات ويشبه بها. ولعل هذا الاهتمام كان انعكاساً لتطلعه للمرموق السامي الذي يبحث عنه والمقطوعة على إيجازها وخفة وزنها وسهولة ألفاظها، فيها تشبيه بعيد آلفه خيال ابن سارة من المتباعدات، المفطوعة أيضاً مترفة بالأضواء والألوان والمعادن الكريمة والصورة مجلوة واضحة أنه قد يقتصر على الوصف الخارجي للأشياء.

([70]) نفح الطيب، ج5، ص 138.

([71]) دواوين شعرية لشعراء أندلسيين، د. هدى شوكت بهنام، ص 77.

نجمة وشهـاب:

وقد أثارت خيال ابن سارة نجمة سارية أسرلت خلفها مستطيل ضياء حين لمحت عفريتاً يسترق السمع فهوت تشق طريقها نحوه وبشهاب ملتهب لامع. فكانت كفارس سابق وقد عمامته انطلاق الفرس في عدوه الشديد، فاستطالت خلفه طائرة مسدلة على كتفيه:

وكوكب أبصر العفريت مسترقاً &&& فانقض يذكــي أثره لهبه

كفارس حل إحضــار عمامته &&& فجرها كلها من خلفه عزبه

وتشبيه الكوكب بالفارس على نحو المذكور فيه صورة مبتكرة دقيقة جمع فيها الشاعر بين المتبعدات في إحكام وقد ملأ النظر كله بالحركة والطيران.

وصف الليل:

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده[72]:

وليل كما مدَّ الغـراب جناحه &&& وسال على وجه السّجِ ل مدادُ

به من وميض البرق،والليل فُحمةٌ &&& شرار ترامى والغمامُ زناد

سريتُ أجبيه، لا حَّية السُّــرى &&& تموت ولامَ يْتُ الباح يُعادُ

سرى: برد الحزن وابعد الهموم، شجا: أحزن

الطية: الحاجة والقصد ووجهة المسافر، وهنا بمعنى السفر

يعاد: يزار

وصف متنزه:

ومجرَّ ذيل غمامة قد نمعت &&& وشــي الربيع به يدُ الأنواء

ألقيت أرحلنــا هناك بقية &&& مضـروبة من سرجة غناء

وقسمت طرف العين بين رباوه &&& مخضرة وقرارة زرقاء

وقال سصف سحابة تشمي على الظلماء[73]:

([72]) شعر الطبيعة في ألأدب، شعر عربي، سيد طوفل، ص 142-143.

([73]) الغلائد، ص 270: ومسالك الأبصار، ج11، الورقة، ص 387، البينان، ج6، ص 7.

وغمامة لم يستقل بها السُّرى &&& فمشت على الظلماء مسي مقيد

حلمت بها ريحُ القبول تحتها &&& سحـابة الأذيــال تلمس باليد

في ليلة قد بات يلحس تحتها &&& حبراً لسـانُ البـارق المتـوقد

مجهدين أنفسهم يف وصفه ووصف ما يحيط به من مظاهر وأحاسيس تختلف بإختلاف ما يكون ضيقاً بطوله الذي لا نهاية له حتى لكان الدهر قد وضع عمره كله وخدمته كما علمته تجارب الحياة أن يواجه الحياة في مرونة متخذاً لكل شيء ما يلاءم معه من الوسائل:

وليل كأن الدهر أقصى بعمره &&& جميعاً إليه فأنتهى في إبتدائه

وصف النـار:

لقد أولع ابن سترة بوصف النار حتى لقد يصبح من الممكن أن يطلق عليه شاعر النار لما يلاحظ عليه من اهتمام خاص بها، فقد أوقف على وصفها عدداً وأقرأ من المقطوعات تشهد له بالبراعة والأصالة والإبتكار.

أنظر مثلاً إلى هذه النار الزهراء في حلل الديجور وإلى الظلام الذي يلبس غلالة النور، وإلى الجمر الأحمر الذي يتخلله الرماد الاسود، وإلى الفحم الذي يحول شرره إلى عسجد منسَّور، وأخيراً أنظر إلى ظلام الليل وبجانبه ضياء النجوم، الأمر الذي أكسب الوصف حيوية وحركة وقفزات ذهنية بين أطراف التشبيه في قوة مبدعة[74].

نار الشمـع:

ولم تقف تجربة ابن سارة عند حد وصف نار الكانون والتنور، بل نراه يرسل تأملاته في نار الشمعـ التي كان الأندلسيون يستعينون بها في رحلاتهم ونزهاتهم ومن ثم فقد صارت ميداناً لتجاربهم الشعرية. ونحن هنا مع ابن سارة وهو يتابع نار الشمع وهي تضيء الطريق لركب المحبوبة رحلت في ليلة بليلة شديدة الريح العابثة بالشمعة

(74) شعر بني أمية في الأندلس، السيد أحمد عمارة، مكتبة المتنبي، ص 1،2.

المشتعلة. بما أرسلت من لهب صاف لا يخالطه دخان كما لو كنا أمام برق لامع مصحول بسحب ممطرة.

حمراء ترفل في السواد كأنها &&& ضربت بعرق في بني العباس

جاءتك في تنورها دل المسجور &&& زهراء في حلل من الديجور

قد شابت النار بكانوننـــا &&& لمـــا تناهى عمره واكتهل

وصف الفـراء:

اشتهر شاعر بوصف الطبيعة والنار فقد اشتهر أيضاً البالية في أتى فيها على كل ما يخطر على البال من المعاني لتصوير حالها وماله معها.

إن قلت باسم الله عند لباسها &&& قرآت عليّ إذا السماء انشقت

ياجسم الفـراء في تقريعها &&& بعد المشقة في قريب الشقـة

وصف العصـا:

سبقق أن أشرنا إلى أن ابن سارة يتخذ من كل شيء يتصل به، أو يقع تحت حسه مادة لفنه، وها نحن نلتقي معه وهو يصف عصاه، وقد سلك في تمجيدها مسلكاً طريفاً بمدحها عن طريق ذمها ليكون أعلق بالنفس وأوقع[75]:

ولي عصا عن طريق الذم أحمدها &&& بمـا أقـدم في تأخيرها قدمي

كأنني قوس رام وهي لـــي وتر &&& أرمي عليها سهام الشيب الهرم

والأبيات على إيجارها حافلة لا خيلة، فصورة العصا التي يعيش بها على الثمانين من العمر طريقة مثيرة للزهن وهو يرمي سهام الشيب والهرم[76].

وصف الحيوان:

وقد وصف ابن سارة الحيوان الذي كان يعمر بيئتهن شأنه شأن شعراء عصره، بيد أننا لا نجد له فيما بين ايدينا من شعره مقطوعات موقوفة على وصف الحيوان فقط، سوى وصفه للهر أكثر من مرة، ولو أننا نراه يستمد من بقية الحيوانات مادة لتسبيهاته

([75]) المرجع السابق، ص 185.

([76]) ابن سارة الأندلسي، حسن أحمد النوش، ص 188-189.

في الأغراض المختلفة في غشارات متفرقة شملت العقارب والحيات والذئاب والكلاب. وقد سبق أن اشرنا إلى أنه كان يحب القطط ويأنس إليها. وتصور الشاعر بعد ذلك بياض جبهته بين حاجبيه شمساً منيرة بين كوكبين[77]:

ومن ذوات النيوب شهم &&& مظفر النـاب واليدين

في طيلسان من ابنـوس &&& على قميص من اللجين

غرته ما بين حاجبيــه &&& كالشمس ما بين كوكبين

ونلاحظ أنه أضفى على معشوقه، فهو مقدم شجاع ياخذ فرائسه بقوة عزيمته وأنيابه، وقد اجتمع فيه الحيوان من الألوان كالأسود الغاحم، والأبيض الناصع، الذي يكشف كل عن جمال الآخر. الأندلس في تشبيه الأشياء الصغيرة باخرى كبيرة في سمو ورفعة أحياناً، والتعبير هنا مظهره التشابه الحسي كما هو شأنه.

الحب والغـزل:

وكما استرقت البيئة الأندلسية نظر ابن سارة بجمالها الطبيعي وفقد تيه عاطفته وآثار مشاعره ما كان للأندلس من الجمال البشري الآخاذ الذي يتخذ من الطبيعة الجميلة مسرحاً له وكانت الحياة حافلة بالأوان الزائز فياضه بينانبيع الخمر داعية إلى التحلل وتزينها أجمل الشقاة والساقيات وأبرع لمغنين والمغنيات، وقد إزداد الناس ميلاً إلى إباحة، فكانت الحياة بهذا الصورة تكون عناصر البيئة الاجتماعية الأندلسية في مصر الشاعر، عهد الطوائف وشطر وعهد المرابطين.

ومن ثم فإنه لا يبدو غيرباً أن نرى ابن سارة صاحب المزاج الحاد المشغوف بالجمال في شتى ألوانه والمندفع نحو المتع الحسية، مأخزذاً بما توافر في بيئته من جمال بشري فاتن يلهمه عدداً كبيراً من مقطوعاته الباقية في وصف هذا الجمال والتغني بمحاسنه[78].

([77]) ديوان ابن سهل ص 110.

([78]) في الأدب الأندلسي، د. فوزي عيسى، الإسكندرية، ص 43.

الخاتمة:

الحمد لله الأَوَّل والأخرُ والظاهُرالباطنُ والصَّلاةُ والسلامُ على النبي الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى صحبه الغُر الميامين وآل بيته الطاهرين الطيبين، صلاة تمتدُ إلى يوم الذين.

وبعد فقد تكون البحث من مقدمة اشتملت على الإطار العام للدراسة ثم تمهيد والفصول الثلاثة، خصص الأوَّل للدراسة نشأة في تاريخ الأندلس في حضارة، تطوره والفصل الثاني الحياة الأدبية في الأندلس، الفصل الثالث عن شعر الطبيعة في ألندلس ونقف فيما يلي على أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال النظر إلى هذا الموضوع.

أولاً: النتائـج:

1. إنَّ أوَّل ما يجده الباحثون ويلحظه واضحاً يف تاريخ الحياة العلمية ببلاد الأندلس اهتمام أهلها الكبير بالعلوم بشكل عام.
2. امتاز الأندلسين بحفظ الكثير من دواوين العرب وأشعارهم.
3. لعل من النتائج المهمة التي يقف عليها الباحثون في التراث الأندلسي أهمية نقل العلوم حتى تكون ظاهرة في وقتها. فقد عرف الكثير من العلماء الأندلسيين رحلات علمية وكذلك بدافع الحرص على ملاقاة مشاهير المعاصرين هنالك.
4. إن ارتباط شعراء الأندلس برصفاتهم في بلاد الأندلس.
5. إنَّ العوامل التي ساعدت سابقاً في تكوين الذوق الآدبي الأندلسي هي نفسها أسهمت في تطوير حركة الوصف في الأندلس.

ثانياً: التوصيـات:

1. يحتاج الآدب الأندلسي بشكل عام أن يخضع إلى مزيد من الدراسات ليظهر على حقيقته لدى الدارسين والمهتمين بالدراسات الأندلسية.
2. أن لا يغرق الباحث في البيئة الأندلسية حتى نظن أن الآدب الأندلسي فقط ما تحدثوا فيه عن الطبيعة وأن يترك مساحة للنظر فيما كتبه الأندلسيون في الموضوعات الشعرية الأخرى.
3. دراسة الوسائل التي اتخذها الأندلسيون في الدفاع عن أدبهم.
4. تصنيف الأغراض الشعرية الأندلسية لمعرفة أكثر الأغراض طغياناً على الشعر الأندلسي تحليل ذلك.
5. دراسة الأثر النفسي لدى شعراء الشعر الأندلسي وهم يسعون لإثبات الهوية الأندلسية وإظهار شخصية الأندلس من خلال إنتاجهم الشعري.

المصادر والمراجع

1. احسان عباس، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط1، بيروت، (د. ت).
2. أحمد بدر، تاريخ الأندلس (التجزؤ السيادة المغربية بسقوط التأثير الحضاري سنة 1983م).
3. أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المعرب والأندلس، الناشر المؤسسة الجامعية للطباعة والتوزيع.
4. ازاد محمد كريم، القيم الجمالية في الشعر الأندلسي عصري الخلافة والطوائف.
5. أزهري شوكت بهنام، دواوين شعرية لشعراء أندلسيين، الطبعة الأولى 2013م-1434هـ، دار غيداء للنشر والتوزيع.
6. جريجي ذيدان، فتح الأندلس، دار الجيل، ط5.

7. حسن أحمد النوش، ابن سارة الشنتريني الأندلسي حياته ونشعره، الطبعة الأولى عام 1996م.
8. حسين مؤنس، الشعر الأندلسي بحيث تطوره وخصائصه، نشر دار الرشد.
9. حسين مؤنس، فجر الأندلس –دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية-، الناشر المركز العربي للطباعة والنشر.
10. حكمه علي الأوسي، فصول في الآدب الندلسي في القوانين والثالث للهجرة، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة.
11. السيد أحمد عماره، شعر بني أميه في الأندلس، مكتبة المثبن جميع الحقوق محفوظة للناشر، الطبعة الأولى 1416هـ -1995م، الطبعة الثانية 1422هـ - 2001م.
12. شوقي ضيف، تاريخ الآدب العربي، عبد الدول الامارات، الاندلس.
13. عبدالكريم التواتي، ماساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، نشر وتوزيع مكتبة الرشاد.
14. عبدالمجيد عابدين، دراسة تحليلية نقدية لنماذج من الشعر الأندلسي، دار الفكر ببيروت، الدار السودانية للكتب.
15. فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، الناشر دار لدينا للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2007م.
16. فوزي عيسى، في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، 2004م، ط1.
17. محمد رضوان الدَّايه، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، استاذ الأدب الأندلسي بجامعة دمشق، ط1.
18. محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس، القاهرة، مبعة لجنة التأليف.
19. مصطفى الشكعه، الأدب الأندلسي، بيروت، دار العلم للملايين، سنة 1979م.
20. نضال سالم النوافعة، الأدب الأندلسي في الموسوعات الأدبية في العصر المملوكي، دار مجاليس الزمان، الطبعة الأولى، عام 2013م.
21. نعمان عبد السميع متولي، الشعر الأندلسي، دار العلم والإيمان، ط1.
22. يوسف عبده، يوسف فرحان، معجم الحضاره الأندلسية، دار الفكر العربي ببيروت.